خَيري شَلبي

أشياءُ تخُصُّنا

روايَة

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

أشياءُ تخصُّنا

خيري شلبي

أشياء تخصنا

رواية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

أَشياءُ تَخُصُّنَا

ISBN: 978-9953-27-928-2

الناشر

دار الكتاب العربي
DAR AL KITAB AL ARABI

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس
Verdun St., Byblos Band Bldg.

ص. ب. 11-5769
P.O. Box 11-5769

بيروت 2200 1107 لبنان
Beirut 1107 2200 Lebanon

هاتف Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178
فاكس Fax (+961 1) 805478
بريد إلكتروني E-mail daralkitab@idm.net.lb
www.dar-alkitab-alarabi.com

www..academiainternational.com
www..academia.com.lb

مخالصة

إلى المجهولين من عمال التراحيل.. أولئك الذين زرعوا في قلبي الصغير الغض حب الحكايات.. علموني فلسفة أدب الحكي باعتباره وسيلة مثلى للتعارف على جسر من الحميمية والأريحية حيث يقوم التواصل الإنساني في أجلا صوره وأغناها.. هأنذا أرد لكم بعض ما في مطاميري من حصاد.

خيري

أشياء تخصنا

يا ربي!.. الرحلة من بدايتها كانت ناجحة جدًّا، وممتعة، ربما هي أمتع رحلة صحفية قمت بها في حياتي، على كثرة ما قمت به من رحلات في الخارج والداخل. كل الرحلات السابقة مارستها كمراقب يهمه أن يجد في النهاية ما يكتبه للقراء من أشياء مثيرة مفيدة معًا؛ أما هذه الرحلة فقد عشتها بمعنى الكلمة، انغمست فيها حتى النخاع إذ نجحت في خلع شخصية الصحفي الفضولي وإلقائها في البحر قبل أن نغادر ميناء الإسكندرية.

المناسبة نفسها كانت سعيدة بقدر ما هي مزدوجة؛ ذلك أن السفينة التي أبحرنا عليها - السفينة عايدة - كانت سفينة شحن لنقل البضائع، وكانت تقوم برحلتها العذراء أي أنها تبحر لأول مرة؛ ولهذا تفضلت شركة الملاحة البحرية بدعوتي كصحفي لمرافقة السفينة عايدة في رحلتها العذراء لكي تستفيد الشركة من ملاحظاتي التي سأكتبها بعد العودة، وتضمنت بطاقة الدعوة برنامج السفينة في خط سيرها في أعالي البحار، حيث يتعين عليها إقامة حفل في كل ميناء من الموانئ المدرجة في خط سيرها المقرر سلفًا حسب تعاقدات على تعتيق أو شحن، يدعى

إلى الحفل عمدة المدينة ووجوهها وكبار المسؤولين في الميناء...

هذا في حد ذاته إغراء كاف لقبول الدعوة. ومن جانبي كان هناك ظرف شخصي خاص يجعل من هذه الدعوة - أيًّا كان مستواها - حلمًا من الأحلام؛ ذلك أنني وقد جاوزت الأربعين من العمر أعزب مضربًا عن الزواج خشية أن يقيدني بعيال يحدّون من حريتي ومن رغبتي الدائمة في الارتحال فوجئت بأنني قد أحببت دون أية مقدمات، إذ وقعت أسيرًا في عيني فتاة تصغرني بعشرين عامًا من أول نظرة لها صافحت عيني يوم أن التقيتها في مكتب الأستاذ رضا المنجي رئيس تحرير مجلة العصر الفنية التي أعمل بها، حيث قدمني لها بحاشية من التفخيم أخجلت تواضعي، وقدمها لي بتلطف حانٍ، واصفًا إياها بأنها مصورة موهوبة التحقت بالمجلة حديثًا تحت التمرين؛ أوصاني برجاء خاص أن أجرب «شغلها» في موضوعاتي وتحقيقاتي التي يعتبرها اختبارًا حقيقيًّا لموهبة المصور؛ فكان لا بد لي من أن أجرب في الحال حيث كنت في الواقع قد دخلت في عينين مثل كوخين تفتحهما الشمس على حقول خضراء.

اصطحبتها في عدة موضوعات أثبتت خلالها - إلى قدرتها على التصوير بحساسية فائقة - جدارتها بأن تكون زوجاً لي وأن تحولني من مضرب عن الزواج باقتناع عقلاني إلى متلهف عليه باندفاع عاطفي؛ سيما وأنها كانت بلا أي شروط تقليدية بل كانت لا تفكر في الولد بقدر ما تريد إشباع رغبتها في الانطلاق لمشاهدة العالم، فما كانت الأشهر الستة المقررة للاختبار تنتهي حتى كنا زوجين سعيدين في اتساق وتكامل وتفاهم؛ وإنه لمن

حسن الطالع أن أتلقى هذه الدعوة الكريمة فعلًا في اللحظة التي كنا نفكر في كيفية قضاء شهر العسل. وحينما تقدمت لرئيسي بمشروع السفر لكي يعتمده كسفرية خاصة بالعمل جرى بصره على سطوره فرأى أنني سوف أصطحب عروسي سناء البحراوي في الرحلة كمصورة؛ فابتسم في أريحية وقال إنه سيوافق بشرط أن ألبي رغبته في اصطحاب زميل محرر كان قد وعده بسفرية للخارج تشجيعًا لمواهبه ومكافأة له على جده في العمل.

من حسن الحظ أن الزميل الذي اقترحه كان إينال عبد الغني، وهو محرر أدبي يصغرني بأكثر من عشر سنوات، وأنا من أشد المعجبين بقلمه وذوقه وأدبه وكريم أخلاقه كفلاح رقيق صريح وشهم.

لو كانت الرحلة في سفينة ركاب ما وفرت شيئًا من المتعة؛ لأنك فيها ما تكاد تتعرف على المرافقين حتى يهبطوا في موانيء قادمة فهي سامر ما يكاد ينتصب حتى ينفضّ. أما سفينة البضائع فإنها أسرة واحدة بطاقم ثابت على السفينة لا يتغير ولا يتبدل طول الرحلة مما يولد الدفء والتضامن والتطامن والحميمية، كما أن سفينة البضائع تمكث في الميناء عدة أيام ربما وصلت إلى أسبوعين أحيانًا في شحن وتعتيق أو في انتظار مكان ملائم على رصيف الميناء، مما يتيح لنا تجوالًا في مدن الموانئ وربما السفر بالقطار أو بالطائرة إلى مدن مجاورة ثم العودة إلى الميناء قبل إقلاع السفينة ولو بساعات قليلة..

هذا بالضبط ما فعلناه ثلاثتنا: سناء البحراوي وإينال عبد

الغني وأنا: حسين مخلوف الفرنواني. غربلنا موانئ الخط، استخدمنا بطاقاتنا الصحفية في تذليل العقبات وتيسير الانتقال داخل دولة الميناء من بلد إلى بلد، غصنا في الحواري الضيقة وجلسنا على مقاعد بدائية في مقاه وبارات وأندية تنتمي إلى القرون الوسطى في مالطة وقبرص وإسبانيا، زرنا متاحف ومسارح وأماكن موصوفة للسياح، أجرينا أحاديث وحوارات مع ألوان شتى من المسؤولين والفنانين والبشر العاديين، صورنا الطبيعة في البحر وفي الغابات والأحراش كما صورنا الحياة في أحياء آيلة للسقوط في أحشاء مدن ذات ثقل تاريخي رنان؛ ولأن إينال عبد الغني قارئ جيد للأدب الأوروبي، فإن ذاكرته كانت تحمل الكثير من الشوارع والمنشآت والمعلومات والشخصيات التي التقاها في القصص والروايات والمسرحيات مما جعل الكثير من زياراتنا تستضاء بخلفيات تاريخية واجتماعية مفيدة جدًّا وممتعة.

كنا مدللين على السفينة كأن أمهاتنا قد دعون لنا في ليلة قدر؛ فنحن الثلاثة فقط نسمى على السفينة بالركاب؛ ذلك أن كل فرد في طاقم السفينة البالغ عدده أربعين فردًا له وظيفة محددة من الفراشين إلى النجارين والبحرية والضباط والمهندسين والإداريين والطباخين والسفرجية.. إلخ، وهم يتنادون بألقابهم لا بأسمائهم وبما أنهم أبناء بحر متودكين فقد اعتبر كل واحد منهم نفسه مسؤولًا عن سلامتنا وأمزجتنا؛ فكل طلباتنا مجابة وفي الحال، ومائدتنا في صالون الطعام في الوجبات الثلاث الإجبارية يشرف عليها رئيس المطبخ بنفسه، ويزوِّد ثلاجات غرفنا

بمأكولات معلبة لزوم الاحتياط للجوع الذي يسببه البحر فيما بين الوجبات أو في الهزيع الأخير من الليل؛ أما المشروبات الروحية بجميع أنواعها وأشهر ماركاتها فحدِّث ولا حرج؛ وأما خراطيش السجائر الأجنبية فتهدى إلينا مثل سيجارة عابرة.

ولأننا الوحيدون الذين يسمون بالركاب على سفينة جهزت غرفها على مقاس شاغليها من أفراد الطاقم لذا فقد أنزلنا في كابينة «الأونر»، يعني مالك السفينة، وهي كابينة موجودة في كل سفينة حتى وإن كانت ملكًا للقطاع العام كالسفينة عايدة، كما أنها كابينة غير عادية: هي ثلاث غرف يُفترض أن المالك ربما يشغلها بزوجه وعياله في إحدى الرحلات، تفتح على بهو مجهز للاستقبال وإقامة الحفلات. نزلت أنا وسناء في غرفتين متصلتين بباب داخلي ونزل إينال عبد الغني في الغرفة المقفلة والمطلة على البهو المفروش بمقاعد وأسطة فخمة.

حفلات كثيرة جدًا أقمناها أو أقيمت على شرفنا في هذه الردهة. إن رجال البحر العاملين في أعالي البحار، أولئك الذين يمكثون في البحر أشهرًا طويلة بعيدًا عن أوطانهم وعيالها وأحبائهم ومهود ذكرياتهم لا يجدون في البحر وسيلة للتنفيس ودرء السأم سوى الحفلات، يخترعون الطريقة التي تضاف إلى أعياد ميلادهم وميلاد عيالهم وأعياد زواجهم، أحيانًا بمناسبة رؤية في المنام رآها معلم البحرية واستبشر بها خيرًا، وكل من يدعو لحفل يتحمل مشاريبه وسجائره ومأكولاته الأولية، وما إن يبدأ الحفل حتى تنهال الهدايا من الجميع، وتكثر الحفلات عند رمي المخطاف في عرض البحر إما انتظارًا للمرشد - «البايلوت» -

الذي يتولى قيادة السفينة للعبور بها من هذه المنطقة أو تلك من المناطق الخطرة، وإما انتظارًا في المياه الإقليمية حتى ينتهي الميناء من إخلاء مكان للسفينة على رصيفه.

يا إلهي كم هي بديعة ومؤثرة هذه الاحتفالات البحرية التي يقيمها المصريون والأفارقة بوجه عام على ظهور السفن الشاحنة، خلالها يكتشف الواحد منا أن مصر واسعة بحجم الكون وأنها ملآنة بمواهب نادرة وغريبة وفريدة في أمور شتى، وتشع إنسانية وعطاء. لهفي على غنائهم في هذه الحفلات؛ ليس لحلاوة الصوت أو قوة الحنجرة أي اعتبار ها هنا رغم توفرهما، إنما حلاوة الحس أعظم وأفعل في الإحساس. لله ما أروع الأصوات غير المحترفة وهي تغني في الغربة نفس أغنياتنا المتداولة في المذياع والتلفاز ليل نهار إلا أنها على أصواتهم تقطر حرارة وعذوبة حيث تصير البهجة من فرطها بكاء والبكاء فرط ابتهاج وسرور. ثم ما كل هذه المواهب في الرقص البلدي الرجولي الذي يزيل جبال الألم ويبدد كوابيس الهموم والأحزان، وفي العزف على آلات موسيقية تظهر فجأة، والنقر على الدربكة المصرية المشعللة التي إن أرادت رقصت الكواكب المطلة في خفر على عرض البحر في الليالي التريكوازية المفعمة بالحنين الصارخ.

هكذا من متعة إلى متع، من ميناء إلى موانئ، من مدينة إلى مدائن وصلت السفينة عايدة إلى آخر ميناء في خط سيرها. كنا قد عبرنا المتوسط إلى بحر الشمال الإنجليزي إلى الكيل كنال الألماني فبحر البلطيق الذي اخترقناه إلى هذا الميناء الأخير الذي كان ضمن حدود ألمانيا الشرقية قبل توحيد الألمانيتين.

وكانت إحدى شركات القطاع العام المصري المتخصصة في تسويق الشحن لحساب السفن المصرية - ولها مكاتب ومندوبين في معظم الموانئ العالمية - قد تعاقدت على شحنات ستحملها السفينة عايدة إلى القاهرة رأسًا، فكان على السفينة أن تبقى في الميناء ما يقرب من عشرة أيام يتم خلالها استقبال شحنات من بضائع متنوعة يجري تستيفها بشكل هندسي يحفظ للسفينة توازنها.. وهذا معناه أننا سنمرح في المدينة وقتًا طيبًا..

المدينة تبدو صغيرة لكنها مثل صندوق سحري ونحن فيه كثلاث بليات تتدحرج بين أركانه فنرى الشيء الواحد عدة مرات بأشكال مختلفة ونشعر بها شعورًا مختلفًا، إلا أنها من فرط حميميتها أعطتنا الإحساس بأنها دارنا التي وُعد بها المتقون في الجنة، ففي كل مبنى حديقة باسقة يمرح فيها أطفال شقر كالملائكة، والشوارع نظيفة لامعة كالمرايا، ونساء متوردات يخطرن في رشاقة كأنهن بنات الحور. المباني تكاد تكون كائنات إنسانية بديعة التكوين في أشكال وألوان غاية في الرصانة، فكأن المدينة مبنية لتقيم فيها عائلة واحدة متعددة البطون والأفرع. هي مدينة تفتح لك أبوابها لا لكي تمرح فيها كيفما شئت وإنما لتعلمك الأدب ورصانة السلوك واحترام هيبتها، خاصة وأنت تتهجى لافتات نحاسية مهيبة على بعض البنايات تخبرك بأن وجوهًا من عمالقة الأدب والموسيقى مثل غيته وفاغنر عاشوا في هذه البيوت واتخذوا من هذه المدينة - واسمها ويزمار - منتجعًا يخلدون فيه إلى التفكير والإبداع.

على أن هذه الهيبة العتيقة الراسخة تبدأ في الاهتزاز كلما

اقتربت من حدود الميناء بحواريه الجانبية ورأيت العديد من عاهرات ذوات جمال تعيس يجلسن على عتبات البيوت شبه عاريات يناديك في صراحة ووضوح وخفة ظل إذ ينطقن بمفردات يتوقعن أن تكون من لغتك، وهي غالبًا ستكون كذلك، مما يشي بأنهن قد أدركن بالتجربة الطويلة أن لغات البشر تشبه وجوههم وسحنهم...

أسلمتنا المدينة إلى غابة مترامية الأطراف لا نهاية لها، تبدو كالبحر المحيط بأمواج كسحب خضراء مورقة تتماوج فوق عمد شاهقة من جذوع شجر ونخيل؛ طرق مرصوفة تشق أرضها وعرضها كأشرطة من ضوء إردوازي تتقاطع في أشكال هندسية. الحياة تجري بين الأشجار في سلامة مبرأة من كل عدوان يثيره متطفل حاقد، ومن أين يجيء الحقد والتطفل إذا كان مباحًا للجميع ها هنا أن يسلكوا بمحض حريتهم حيث لا قهر إلا لسيادة القانون الذي يفرض نظامًا والتزامات لا يحيد عنهما كبير أو صغير، مثقف أو دهماء؛ شبان يمارسون العشق في وضح النهار كالعصافير الطليقة ككل الكائنات غير الإنسانية لا يحكمها سوى قانون الطبيعة والوجود الحي..

كنا قد نجحنا حتى الآن في تحييد مشاعرنا الشرقية وتقاليدنا العربية المتزمتة حتى لا يبدو علينا أي لون من النفور أو الرفض أو الاشمئناط؛ نظرًا لاختلاف التقاليد والعقائد والعادات ووجهات النظر للحياة، هم أحرار يمارسون حياتهم كيفما شاؤوا ونحن كذلك أحرار في أن نجاريهم أو لا نقتنع بسلوكهم شرط ألّا نبدي اعتراضًا، ألّا نتدخل في شؤونهم تطفلًا أو استهجانًا.

هذا ما كنت أهجس به دائمًا لسناء وإينال باعتبارهما يحتكان بالمجتمع الأوروبي لأول مرة في حياتهما، وخاصة أنهما كانا أسرع من بعضهما في الحملقة المذهولة والعبّ من المشاهد بفضول لا ينتهي ولا يخمد له أوار. كنت على يقين بأنهما يستنكران ما يريانه، حيث يبدو لي في كثير من الأحيان كأنهما يشاهدان مخلوقات من كوكب آخر تتشابه معنا في البشرية إلا أنها لا تمت لنا بصلة ولا يمكن أن تقوم بيننا وبينها علاقات إنسانية، هو نفس ما كنت أشعر به في بداية اتصالي بالمجتمعات الأوروبية إلى أن اكتشفت بطول التجربة أننا وهم كائن إنساني واحد بوجوه متعددة وحيوات متباينة وعقائد مختلفة لا يفسد اختلافها للود قضية.

لكن ما أدهشني في هذا الميناء هو اكتشافي أن سناء وإينال عبد الغني وصلا إلى حالة من التماهي مع هذا المجتمع والابتهاج من أوضاعه بغض النظر ـ مؤقتًا ـ عما إذا كانت هذه الأوضاع مقبولة أو هي من قبيل الضلال والانحلال..

فيما كنا نتسكع بين الأشجار الوارفة كانت الشمس المخضوضرة تنكسب على فروع الشجر كأن السماء تمطر خمرًا وتصنع فوق العشب بحيرات صغيرة من الويسكي والكونياك، من فرط لمعانه يبدو سائلًا متموجًا فإذا ندوس فوقها يصعد ضوؤها يتسلق أقدامنا وأطراف سراويلنا ثم يلبث حتى ينسحب عنها في الخطوة التالية. على مشارف البصر شاهدنا كدية من الورود بألوان مبهجة وروائح عطرية منعشة وكانت تتماوج من بعيد كأن ريحًا تنفذ من تحتها فترفع أوراقها وغصونها تهفهفها. تلقائيًا

توجهنا نحوها، فلما اقتربنا منها سمعنا لها أصواتًا تشبه أصوات البشر؛ فلما ازددنا اقترابًا تبين لنا أنهم بشر مثلنا: كوكبة من الفتيات والفتيان يتربعون فوق العشب، يتحلقون ركية نار في خفرة قوامها حطب مشتعل، وفوق النار غلاي نحاسي كبير ذو ملامح بزخارف شرقية عريقة تتصاعد منه رائحة قهوة طازجة..

ألقينا عليهم التحية بالإنجليزية، فهللوا في ترحيب بنزق جنوني جميل، أشاروا لنا بأن نتفضل فنشاركهم جلستهم هذه المرحة النزقة الرصينة في آن. في الحال صرنا صغارًا مثلهم بل أصغر منهم، جلسنا حيث وسعوا لنا قوساً اندمج بنا في قوس الدائرة. أمسك أحدهم بالغلاي، صب لنا في الفناجين جرعات من القهوة قدمها لنا في بشاشة شكرناه عليها ببشاشة مصرية أكثر حرارة وأريحية، فلما رشفنا معًا تلاقت أنظار ثلاثتنا على اكتشاف طعم لم نكن نتوقعه؛ ذلك أن القهوة مخلوطة بمشروب روحي لعله الكونياك أو البراندي أو النبيذ. في لمحة خاطفة التقت نظراتنا على تفويت الأمر والاستغراق في التجربة. غير أن هذا المشروب لم يكن وحده؛ إنما فوجئنا بوجود أكثر من غليون كبير بمباسم في طول الذراع تنتقل بين الأعضاء، يمسكه الواحد منهم ويعض على المبسم بشفتيه ساحبًا أنفاسًا من الدخان ينفثها من منخريه رمادية اللون كثيفة عطرية الرائحة.

كان من السهل علينا كمصريين اكتشاف نكهة الحشيش في غليون والأفيون في غليون آخر. للمرة الثانية تلاقت نظرات ثلاثتنا من تحت لتحث على تفويت هذا الأمر أيضًا، وهكذا فوجئت بأن سناء تشفط الدخان بقوة وحرارة وتنفثه من

منخريها مثل كيِّيف قراري، وكذلك إينال عبد الغني، أما أنا فخطفت أنفاسًا سطحية فيما رحت أعرِّف الشبان بنا وبمهمتنا الصحفية على السفينة عايدة. قدموا لنا أنفسهم واحدًا بعد الآخر فإذا هم خليط من طلبة وعمال اعتادوا قضاء الإجازة الأسبوعية على هذا النحو.

الجميل ـ كما استطعت أن استخلص من حوارهم الخاطف ـ أنهم تلاقوا ها هنا دون معرفة سابقة، وأنهم كانوا في البداية واحدًا ثم أصبح يتزايد أسبوعيًا حتى تكونت هذه المجموعة وتآلفت..

رغم أن البحر كان بعيدًا فإنه كان مرئيًا على البعد من خلل الأشجار، وكنا نسمع هسيس الموج وخرخشة المياه عند تلاطمها بالشاطئ الدائري الحجري، صوت تكسرها أقرب إلى صوت قرقشة السكر تحت أسنان حيوان خرافي. رائحة اليود النفاذة تفوح بقوة طاغية، ها هو ذا أحد الفتية قد عاد بعد اختفاء ملحوظ، وضع في وسطنا طاولة من الصاج كان يمسكها بمنديلين من الورق إذ هي ملتهبة، ترتص فوقها أرهاط من السمك البوري المشوي زينت بأنصاف ليمونات.

سرعان ما وصل شاب آخر يحمل تلًا من علب وملاعق مصنوعة من البلاستيك، وزعها علينا؛ كل واحد علبة وملعقة فإذا هي ملآنة بالأرز وفوقه كيس بلاستيكي ملآن بالسلاطة الخضراء. المفاجأة كانت عظيمة بلا شك، ودلتنا الشواهد والكلمات العابرة أن هذا طقسهم المعتاد أسبوعيًا، وأن الغابة التي تبدو لنا مجرد

أشجار كثيفة تتخللها طرق مرصوفة كالحرير، تكمن في أحشائها وربما تحت أرضها محلات ومطاعم للأسماك يؤمها السياح، ولك أن تشتري السمك بنفسك من على الشاطئ - كما يفعل هؤلاء الفتيان - وتذهب إلى محل ينظفه ويتبله ويشويه أو يقليه أو يطبخه حسبما تريد، نظير أجر لا يذكر..

إن هي إلا دقائق بعد الأكل واستئناف الشرب حتى صرنا كالنوارس ترتفع من بحر الأرض إلى بحر السماء ثم نحلق ثم نرد لنرتفع. صرنا في درجة عالية من الشفافية والصفاء.

زالت من بيننا بطاقات الهوية والجنسية، لم يعد للغة أية قيمة على الإطلاق فكل شيء بيننا واصل وسهل إلى أبعد الحدود، بل اكتشفنا أن اللغة كانت عائقًا بيننا في بداية الجلسة فلما اندمجنا نسيناها تمامًا، صارت الخواطر واللمحات والمعاني تعبر من عين الى عين مدعومة بقليل جدًّا من إشارات الأيدي، بل صرنا ثلاثتنا نقول نكتًا مصرية حريفة فإذا بها تضحكهم من الأعماق كأنهم فهموا حتى ظلالها البيئية المحلية، ويقولون نكاتًا بالألمانية تغرقنا كذلك في الضحك من طريقة إلقائها.

في غمرة البهجة أطل علينا قرص الشمس كفحل الرمان تتفتق خدوده القرمزية عن بثور لؤلؤية مكتنزة باللهب، وبدا كأنه يبحث بين الأشجار عن ظل يبترد به، فراح يتسلل من تحت السحب الخضراء وينفقش كالبيضة ويسيح صفاره الداكن فوق الأرض والجذوع وفوقنا...

لحظتئذ انبعث صوت نغم شجي حاد كأنه يحفر في

مشاعرنا نقوشًا فرعونية، فإذا هو كالخطاف يشدنا نحن الثلاثة دفعة واحدة كما لو كنا أطفالًا استغرقهم اللهو واللعب ثم سمعوا صوت أمهم يناديهم فانخطفوا إليها لاهثين شاعرين بالذنب..

انتبهنا بقوة وتركيز، شحبت وجوهنا لبرهة، فانتبه الفتيان لذلك وفهموا أن هذا الصوت قد فصل بيننا بعد اندماج تام فراحوا ينصتون معنا بنفس القوة في التركيز لعلهم يستكشفون سر هذه الخضة التي أصابتنا. الصوت لآلة موسيقية حميمة جدًا بالنسبة لنا كمصريين، يجيء من مكان ما في هذه الغابة الشاسعة، يتقارب حتى كأنه صادر من قعدتنا، ويتباعد حتى كأنه يسافر في السماء، لكنه في الحالين واضح شديد الوضوح، حاد قوي الحدة، رهيب الإيقاع يبعث في الفؤاد حرارة بهيجة وحرقة حميمة يقشعر منها البدن. مع ذلك لم نستطع تحديد هذه الآلة الموسيقية بدقة؛ إلا أن إينال عبد الغني كان أول من انتفض واقفًا وقد بدا عليه سمت الطفل التائه أفاق فجأة على شعور بالغربة. ثم وقفت سناء وقد انفعلت واحمر وجهها صار توأمًا لقرص الشمس. قال إينال:

- «أظن أنه المزمار البلدي.. العفاطة الصعيدية القصيرة!».

قالت سناء:

- «أمي من مرسى مطروح وأنا أعرف أن هذه الآلة هي قطمة البوص التي يتفنن في صنعها والنفخ فيها أهالينا في مرسى مطروح والواحات وسيناء!»

قلت لهما:

- «يخيل لي أنها رباب!»

قال أحد الفتيان في ثقة:

- «ذي هي الهارمونيكا!»

قالت فتاة في لون القطايف المقلية:

- «هذه هي القيثارة!»

هز إينال رأسه في شبه تأييد:

- «ربما! احتمال كبير أن تكون هي القيثارة الفرعونية التي تطورت في إسبانيا وأوروبا!».

قال الذي كان قد أتى بالسمك:

- «يوجد اليوم جهاز كالأورغ مثلًا فيه كل أصوات هذه الآلات والعازف يتنقل بينها ليعزف نفس المقطوعة! وهذا يتم هنا بشكل يومي منذ سنين ولا نعرف من هو ولا في أي مكان يوجد!».

وقال آخر:

- «ليس يوجد هنا ملاهٍ! والذين يسرحون في الشوارع والحدائق والبارات لا يعرفون مثل هذه المعزوفات الشرقية!».

قالت سناء للفتيان:

- «هل سمعتم هذه المقطوعة من قبل؟»

- «كثير جدًا.. ونحب الاستماع إليها!».

هكذا قالت ذات الوجه القطائفي. وصاح إينال فيما يقرب من أن يكون توترًا:

- «أيًّا ما كانت الآلة فإن ما يهمني الآن هو أنها تتكلم بالمصري! هذه أغنية فولكلورية مصرية صميمة أعرفها حق المعرفة وهي حميمة جدًّا جدًّا بالنبسة لي!».

أومأت سناء برأسها:

- «ولي أنا أيضًا! إنها داخلة في نخاع نسيجي!».

قلت لهما إنني وإن كنت من أصل سكندري فإنني أتعرف على هذا اللحن، أكاد أنطق كلماته لكن ذاكرتي ليست تريد أن تسعفني، وأخذت أعصر جبهتي محاولًا الإمساك بكلمات هذه الأغنية التي راحت تتخايل وتبرق في رأسي كالكريات الزجاجية ما تكاد تظهر حتى تختفي. عندئذ هتفت سناء:

- «إنها.. يا بهية وخبريني يا بوي ع اللي قتل ياسين!».

لوي إينال شفتيه بغير اقتناع. طرقعت أنا بأصابعي مندفعًا مع خاطر خادع:

- «هي أغنية يا وابور الساعة اتناشر يا مقبِّل ع الصعيد!».

وكان إينال قد انخرط في تفكير عميق اتسعت له عيناه وضوعفت أحجام ملامحه فبدا كقط بلدي يتحفز للقفز إلى علو

شاهق، يصدر من حلقه ترنيمات خافتة غير واضحة.

ورحت أنا أدندن بأنغام قد تستدر أنغامًا من نفس العائلة النغمية لعلها تذكرني بكلمات هذا اللحن الذي كنا نغنيه في الشوارع ونحن أطفال:

- «البنت بيضة بيضة بيضا.. البنت بيضا وأنا أعمل إيه..
يا ولدي يا ولدي أنا حبيت.. وبنار الغيرة انكويت!».

ولكن دون جدوى..

وأخيرًا كان لا بد أن ننصرف عائدين إلى السفينة بعد، إذ دخل الليل واستضافت الغابة أقباسًا من ضوء الطرقات والمدينة المتلألئة من بعيد كلوحة بألوان الباستيل، ثم إن الشلة صافحتنا متمنية لنا حظًّا سعيدًا ومضوا. خفنا أن نتوه في الغابة فقفلنا عائدين نقتفي أثر الشلة حتى اهتدينا إلى طريق الميناء..

طوال الطريق لذنا جميعًا بالصمت العميق كن شاغلًا مروعًا قد طرأ علينا ليحتل أدمغتنا. كنت واثقًا أن إينال وسناء يعصران ذاكرتيهما للتعرف على أصل هذا اللحن الفولكلوري المصري الذي لا تزال أصداؤه تتردد في صدورنا.

رغم يقيني من أن اللحن فولكلوري قديم فإنه يذكرني بألحان كثيرة حديثة تشبهه إلى حد كبير وإن لم تكن هو، وقد وقر في ذهني أنني لو تتبعت أشباهه من الألحان الحديثة فربما أوصلتني إليه بالتداعيات النغمية، انفتح في ذاكرتي سيل من الأغنيات الشعبية التي شكلت وجداننا في الطفولة والصبا إبان

انتشار أجهزة الراديو على نطاق شعبي واسع: يا بو العيون السود ياللي جمالك زين؟.. يا حلو ناديلي وشوف مناديلي؟.. ع الحلوة والمرة مش كنا متعاهدين؟.. مين السبب في الجب القلب ولا العين؟.. مبروك عليك يا معجباني يا غالي عروستك الحلوة قمر بيلالي؟.. طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة؟.. يا عشاق النبي صلوا على جماله؟.. عوف الأصيل؟.. على بلد المحبوب وديني؟.. يا ليلة العيد أنستينا؟.. تراعيني قيراط أراعيك قيراطين وتشوفني بعين أشوفك باتنين؟.. أنا والنجوم صاحيين والبدر راعينا؟.. شفت حبيبي وفرحت معاه دا الوصل جميل حلو يا محلاه؟.. فاكراك ومش حا انساك مهما الزمن قساك ولّا نسيت حبي وإن رحت مرة تزور عش الهوى المهجور سلم على قلبي؟.. يا شمعدان حارتنا يا منور حينا؟.. برهوم حاكينا؟.. سماح يا أهل السماح لوم الهوى جارح؟.. رايداك والنبي ريداك؟.. لاموني؟.. إن كنت ناسي أفكرك؟.. حاسديني على حبك ليه؟.. غني لي شوي شوي؟.. في نور محياك؟............. صار جسدي يهتز؛ شعرت بيد تداعب ذقني، فتحت عيني بصعوبة على صوت سناء يناديني برفق: «حسين! حسين!»، ومدت يدها الأخرى بزجاجة الماء: «خدلك بُق!». نظرت في الساعة فإذا بنا في غبشة الصباح:

- «إيه فيه إيه يا سناء؟».

- «إنت طول الليل تخطرف طيرت النوم من عيني! إنت كنت بتحلم إنك مذيع ولا ف حفلة؟».

- «ما حلمتش بحاجة فيه إيه؟».

- «ولا حاجة بس نام وأنت ساكت!».

- «حاضر يا ستي!».

على مائدة الإفطار كان إينال محمر العينين شارد اللب، وابتسامة مهزولة تتوكأ على شفتيه. قالت سناء:

- «باين عليك ما نمتش كويس يا إينال!» قال إينال:

- «فعلًا يا سناء! طول الليل باكتب!».

- «طب مش تستني لما نرجع مصر وتراجع تفاصيل الرحلة كلها؟».

قلت لها: «جايز بيكتب ملاحظات وده ضروري جدًّا، زي ما أنا باعمل كده بس في نوتة دايمًا في جيبي!».

قال إينال:

- «لا.. أنا كنت باكتب حاجة تانية!».

- «قصة ولا مقال؟»

- «شبه دراسة! مشروع دراسة عايز اكتبها لما ارجع مصر على رواقه عشان اقرأ لها شوية مراجع تاريخية واجتماعية وفنية!».

- «عن إيه يا إينال؟».

- «موضوعها باختصار: استحالة أن يكون الإنسان عالميًّا لأنه مطبوع على أن يكون محلّيًّا وابن بيئته! هي على

كل حال لم تتبلور بعد بصورة كافية! لكن تركيزي فيما كتبته من ملاحظات كان على الجوهر الإنساني للإنسان! يعني إيه الجوهر الإنساني؟ هذه العبارة التي نرددها باستمرار، الفكرة التي جاءتني مساء كانت شبه إجابة على هذا السؤال! وهي باختصار: إن الجوهر الإنساني للإنسان هو مجموعة مكوناته البيئية! الوجدانية والعقائدية والاجتماعية والجغرافية!»

مطّت سناء شفتيها ونظرت لي بابتسامة شقية:

- «فاهم حاجة يا حسين؟».

- «طبعًا يا سناء! كلام إينال واضح جدًّا أديكي مثل! افرضي مثلًا إن أنا باعتباري مصري ومحترف سفر للخارج ودائم الاحتكاك بالمجتمعات الأوروبية! هل أقدر أعيش كألماني، أمريكاني، فرنسي، إنجليزي، بلجيكي، سويسري، كل ما اروح في حته من دول؟ هل من الممكن أن أكون صورة طبق الأصل من الشباب اللي كنا معاهم امبارح لمجرد إني جيت ألمانيا؟».

- «ليه لأ؟».

- «أنا باقول إن ده صعب! ممكن أجاري المجتمع اللي أنا ضيف عليه لوقت معين، لكن أبقى زيهم تمامًا لأ!».

قال إينال:

- «أنا أقول إنه شبه مستحيل! حتى لو حصلت على الجنسية الألمانية واتجوزت واحدة ألمانية طالما إنك

رحت أوروبا وأنت متربي جاهز استحالة إنك تبقى حاجة تانية غير إنك مصري! نعم تستطيع أن تتفرنج كما تشاء وأن تصير بروفسورًا في الجامعة، لكن ما يطرحه عليك المجتمع الأوروبي من تغيير في اللسان أو في المظهر أو في العقلية لن يجعلك أوروبيًّا بل يعمق فيك المفارقات وتصبح كائنًا ببغائيًّا لبقًا خفيف الظل! كما يعمق فيك الشعور بالغربة فضلًا عن أنه يقسمك فتصير اثنين بغراء نفسي قابل للتفكك في كل حين!».

وهنا قالت سناء وهي تعتدل في مواجهته كأنها سوف تلتقط له صورة فنية:

- «يعني فكرة أن يبقى فيه إنسان عالمي قادر على الحياة بسهولة في أي مكان من العالم فكرة مستحيلة؟!».

- «الإنسان يمكن أن يعيش في أية دولة يعجبه نظامها ومجتمعاتها ولكنه حينئذ يكون محض كائن مفرغ من المحتوى الإنساني، يعني ميت القلب متجمد العاطفة فاقدًا للضمير! ففي رأيي أن قيمة الإنسان ترتبط أساسًا بما أنجزه قومه من قيم أخلاقية وروحية! من فنون وآداب تعمق صلة الإنسان بموطنه من حيث هذا الموطن أرض ومناخ وطبيعة خاصة وتاريخ! إن وطن الإنسان هو شرفه والاعتداء على حرمة الوطن انتهاك لشرف المواطن بالضرورة، ثم إنه لا ثقافة لا فن لا

فكر بغير وطن متجذِّر في الأعماق! قد يوجد علم وبحث علمي متقدم حتى في الدول الهجين التي تحوى أرهاطًا من جنسيات مختلفة مثل أمريكا أو ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي الذي كان من أهم أسباب فشله ميوعة الوطن أو تراجع الوطن في سبيل وهم اسمه الأممية، هو بعينه الخالق الناطق وهم العولمية أو الكوكبية التي يروج لها اليوم شيطان جاهل متغطرس اسمه أمريكا!.

حقًّا إن العلم عالمي ما في ذلك شك، أما الثقافة فمحلية قومية ما في ذلك شك أيضًا! الثقافة بروافدها الفنية والأدبية هي القوم! هي جوهر الوطن! هي زاد للعزة والكرامة والسؤدد! الإنسان حين يكون متمردًا على منظومة التقاليد النابعة من طبيعة وطنه وقومه إذا انتقل إلى مجتمع آخر يتناقض تمامًا مع مجتمعه الأصلي سوف يتوهم في بداية الأمر أن المجتمع الجديد أعطاه الحرية، بقدر ما تناقض مع مجتمعه الأصلي، لكنه بعد حين سيتضح له أنه ليس متوائمًا مع المجتمع الجديد بالقدر الذي توهَّمه! وستبقى أزمته على ما كانت عليه بل ربما زادت.. اللهم إلا إذا نجح بمعجزة خارقة في أن يفرغ روحه من محتواها الوجداني القديم الراسخ يعني نفسه من جذوره ويبقى شخصًا بلا أهل بلا أسرة بلا عواطف بلا إبداع بلا هوية!».

ثم رش الملح على البيضتين المسلوقتين وفركهما داخل كسرة خبز وجعل يقضم ويمضغ مسبلًا جفنيه على عينيه مما وشى بأنه يستطعم نكهة الكلام الذي نثره منذ هنيهة. وراحت

سناء تتأمله بنظرة تعكس لونًا من التقدير، فبدا على ملامحها كأنها تقول: أخيرًا قد فهمتك. ثم صعدنا لنشرب الشاي فوق الكويرتة تحت شمس ضحى ألماني رخو. رغم ابتراد الشاي كان أكثر سخونة من الشمس التي رأيتها غارقة في أغوار بعيدة من قاع البحر دون أن تخلع ثيابها التي انتفخت بالماء فضاعفت من حجمها، حتى لتبدو وهي قاعدة فوق سحب السماء ظلًا وانعكاسًا للمستحمة هذه المعجبانية الشابة أبدًا. قلت لسناء:

- «قدامنا يوم واحد نرحل بعده فهل تحبين القيام بجولة في المحلات هنا؟» قالت سناء متحمسة:

- «الأدوات المنزلية هنا تجنن! ورخيصة جدًّا شفت مخرطة ملوخية تحفة وتمنها ما يجيش في المقابض بتاعتها! ولا الشوك والسكاكين والمعالق صناعة راقية! وناخد طقم فناجين وبراريد صيني!».

وقال إينال:

- «أحسن حاجة شفتها هنا المصنوعات الجلدية وخصوصًا الأحذية!»

- «طب ما نقوم نتجول!».

- «وهو كذلك!».

فرحتنا بالمشتريات الجميلة وأسعارها المنخفضة قد أنعشتنا وهيأت مزاجنا لعصرية نستكشف خلالها ما لم نره من ضواحي المدينة، فاتفقنا على النزول بعد تمديدة على الأسرة

عقب الغداء، ولكنني حين صحوت بعد ساعة طلبت إينال فلم أجده في غرفته، فراهنتني سناء على أنه ذهب وحده إلى الغابة؛ وبالفعل كسبت الرهان، حيث تجولنا سويًّا داخل المدينة بحثًا عن أشياء ثمينة نادرة يمكن أن نشتريها للاحتفاظ بها كذكرى طيبة لهذه الرحلة، فاستغرقتنا الجولة إلى ساعة الشفق، وفيما نعرج على طريق الغابة قابلنا إينال عائدًا منها وقد ظهر عليه إجهاد غريب، ولاحظنا وجود جهاز تسجيل صغير في جيبه، فسألته سناء في فرح:

- «سجلت اللحن؟ يا عفريت! والله خطرت لي الفكرة دي امبارح ودلوقتي بس افتكرت أنا كنت عايزه إيه واحنا بنلف في البلد! كنت عايزه أشتري شريط فاضي أسجل عليه اللحن!».

في اكتئاب شديد قال إينال:

- «مع الأسف لم يتمكن الجهاز من التقاطه مع أنه جهاز شديد الحساسية!».

وفي اليوم التالي آخر يوم في هذا الميناء، اتفقا على تلبية دعوة وجهت إلينا عبر محطة اللاسلكي من ضباط مصريين يعملون على سفينة لبنانية وكنت زميلًا لاثنين منهم في مرحلتي الدراسة الإعدادية والثانوية فلما علموا بوجودي على السفينة عايدة من خلال الدردشات التي يتبادلها ضباط اللاسلكي مع بعضهم البعض وهم في عرض البحر أو المخطاف أو في الموانئ طلبوني للمحادثة، وعزموني على يوم نقضيه معًا على أن

نلتقي بعد الغداء في نادي البحرية الموجود في كل ميناء فنلعب البلياردو ثم ننطلق للسهر في محلات خفية يعرفونها جيدًا وهكذا لبست سناء ملابس رسمية تليق بالسهرة، ثم جاء إينال وقد لبس الصندل الجديد الذي اشتراه بالأمس وشبع من الغزل في جلده ومتانته وشياكته ولونه العنابي، وبدا أنه في حال من الإشراق والتحفز للمشي والسهر بمزاج..

غادرنا الميناء في نزق صبياني بهيج. رحنا أنا وسناء نستمع في شغف عظيم إلى حديث إينال عن منجزات الأدب الألماني المعاصر في روائييه الذين فتنوه من أمثال هيرمان هيسّه وتوماس مان وكافكا، وعن هذا الأخير أفاض بحديث مثير عن رواياته التي فضحت خواء الحضارة الغربية وكيفية تدميرها لإنسانية الإنسان، وانبرى يلخص لنا رواية المحاكمة الكفكاوية وكيف أن الإنسان فيها كالمتهم في قضية مجهولة لا يعرف تفاصيلها حتى قضاته. حديثه كان عذبًا وحماسيًّا لدرجة أنه استغرقنا فنسينا ما كنا نود فعله؛ وإذا بإينال كان يستدرجنا بلطف نحو الغابة.

أظن أنه هو نفسه لم يقصد ذلك بل كان يمضي إليها مسلوب الإرادة مسلوب الرغبة في أي مشوار آخر. تلقائيًّا توجهنا إلى نفس الرقعة التي التقينا فيها بالفتية، تربعنا فوق العشب إلا سناء خشيت تكسير فستانها الثمين فجلست بعيدًا فوق جذع مقطوم.

بدا لي أن رأس إينال يرتفع ليختلط بأعشاش العصافير

الكثيرة الملونة حيث برز صدره وتطاولت رقبته وطرطق أذنيه كنفيرين، كهوائيين يلتقطان ما يحفل به الأثير من أصوات؛ فصرت واثقًا من أنه ليس ينصت لسمفونية العصافير التي تتجاوب معها وريقات الشجر كالكورس في المسرح الإغريقي يشرح ويفسر ويعلق على الأحداث يستخلص المعاني الكبيرة؛ إنما كان من الواضح أن إينال يبحث في الأفق من حواليه عن شيء بشغف كبير..

يبدو أن هذا الشيء المنتظر كان هو الآخر على موعد مع إينال، إذ ما لبث الصوت الشجي العبقري أن راح يتسلل قادمًا من مكان مجهول، صوت موسيقى مصرية صرف، بآلة مصرية حريفة فيها من المزمار والرباب والأرغول والقيثار، في صوتها جهارة العاطفة البدائية البكر منطلقة هادرة، فيه رقة الطبع النيلي الواثق من فحولته الخصيبة، فيه التياع الأنثى الشرقية المقهورة المكبوتة تنفس عن مكنون قهرها بصوت رفيع حاد يقهر العاطفة الذكورية، يجلدها بكرباج لاسع حار.

صرت أشعر بالقشعريرة التي تنتاب الجسد حينما يعلن حالة الطوارئ لتوليد طاقة حرارية إضافية. لحظتئذ انكمشت رقبة إينال ونكس رأسه في تركيز شديد ضوعفت من أثره تقاطيع وجهه النحيل النبيل. أما وجه سناء فقد بدا في لون الكبدة وهي تحاول اختراع لحن مصري تركب به فوق المعزوفة الصادحة في هذا الأفق اللانهائي، فجعلت تدندن بصوت خافت لحنًا أعرفه جيدًا بل أعرف أنه من تلحين علي فراج ضمن برنامج غنائي إذاعي عن الحج إلى بيت الله الحرام: «والنبي يا جمل وديني..

على منى وجبل عرفات.. إلخ»، لكنها فشلت في تركيب اللحن على اللحن بصورة مزعجة أربكتها وأسكتتها، فيما رحت أنا أحاول الانسلاخ من أسر اللحن الهادر لأستعيد في ذكرياتي تفاصيل لحن مشابه كان شائعًا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين تغنيه المطربة لور دكاش من ألحان أحمد صدقي وتردده جميع فرق المزمار البلدي: «آمنت بالله.. آمنت بالله.. نور جمالك آية.. آية من الله.. إلخ»، لكن هذا اللحن اختشى من المعزوفة الفولكلورية فتوارت أنغامه في ذاكرتي..

فجأة رفع إينال رأسه، ضرب جبهته براحة يده، ترقرقت الدموع في عينه تعكس شدة الشعور بالقهر والعجز، جعل يردد في غيظ وكمد:

- «مش ممكن! مش ممكن! سأجن! ما يغيظني أن هذا اللحن بالذات له صلة وثيقة جدًّا بطفولتي وصباي وشبابي المبكر.. فكيف أنساه؟! أمي يرحمها الله كان صوتها جميلًا وكانت دائمًا تغنيه لي في المهد ويؤكد إخوتي البنات أنني كنت أنتعش به فأرفس الهواء بقدمي وقبضتي! ولما كبرت كانت أمي لا تني تغنيه كلما انفردت بي لتشعرني بمدى معزتي عندها! بات هذا اللحن قنطرة وصل بيني وبين قلب أمي الحبيب حين تغنيه فكأنها تتغزل فيّ أنا ولدها الوحيد على خمس بنات! يرحمها الله كانت تجعل من هذا اللحن مدخلًا لقلبي كلما أرادت أن تهدئ من ثائرتي أو تزيل غضبي أو تعاتبني على عقوق، والعقوق في نظرها يعني أنني

لم أصبح عليها يومين متواصلين، لم أقبل يدها ذات يوم، لم أرسل لها من الجامعة خطابًا كل يوم!! وأول حب داعب خيالي وقلبي الغض في القرية بثته فيه فتاة كانت تغني هذا اللحن باستمرار فيما هي تنشر الغسيل فوق سطح منزلنا! وحينما صار الحب ماثلًا لكلينا في العيون بات هذا اللحن مرسالًا يناديني للقائها، ما إن أسمعه وأنا أقرأ في حجرتي حتى أهب واقفًا ثم أصعد إلى السطح لملاقاة محبوبتي رتيبة! كانت رتيبة هي أصدق حب في حياتي ولو كان الود ودي لتزوجتها، لكنني لم أكن قادرًا على مواجهة الأسرة ومجتمع القرية الذي يستنكر بشدة أن يتزوج جامعي مثلي من فلاحة جاهلة حتى وإن كانت جميلة طاهرة موسرة!! لقد ندمت لأنني احترمت هذا المجتمع وتخليت عن رتيبة، وإلى الآن لا أعرف أين ذهبت ولا ممن تزوجت!! يا ربي كيف أنسى هذا اللحن؟! كيف؟! أهي النذالة إذن قد اكتملت فيّ لتثبت أنني خسيس سريع النسيان لكل ما كان جميلًا في حياتي ذات يوم، نسياني لكلمات هذا اللحن بالذات لا يقل بشاعة في نظري عن نسياني لأمي ولرتيبة!!».

كلمات إينال كانت موازية في تأثيرها لقوة اللحن الذي يبدو الآن كأنه يرانا رؤية العين بل يقصدنا نحن بالذات ليحاورنا، وها هو ينوح ويتوجع آخذًا على خاطره منا لأننا رغم إلحاحه علينا لم نعرفه، يكاد يعتب علينا قائلًا: «ما كانش العشم يا ولاد

بلدي تنسوني في الغربة». نعم وحق جلال الله إن إحساس العازف يقول هذا عزفًا وتقسيمًا، أنات وزفرات.

عندئذ انتفض إينال واقفًا ملسوعًا بالألم كالمضروب علقة ساخنة، انفرد كالمارد مصعرًا خديه نحو الأفق صارخًا كالملتاث:

- «أرجوك!! أنا تعذبت بما فيه الكفاية سأنفجر من شدة الغيظ من نفسي!!».

ثم انفجر في البكاء، بكاء لم أر أصدق منه في حياتي، كل عضلة في وجهه كانت تبكي بحرقة تتفجر باللوعة والقهر والعذاب:

- «يانا االسْ! يا من تعزفون هذا اللحن ها هنا!! أتوسل إليكم! أريد أن أراكم الآن حالًا! لقد تعرفت عليكم في هذا البلد البعيد ولكن اغفروا لي خسة ذاكرتي التي لم تنطق باسم اللحن فور سماعه! إنما صدقوني أنني أحبكم أموت في ترابكم! قولوا لي أين أنتم الآن آتيكم حيثما تقيمون! افتقدتكم منذ زمن طويل! منذ أن تخليت عن رتيبة إرضاءً لعقلية طبقية فجة! منذ أن رحلت أمي إلى غير عودة! هل أمي عندكم الآن؟! هل توجد بينكم رتيبة؟! هل يجيء صوتكم هذا من عالمنا أم من العالم الآخر! أرجوكم أجيبوني! أجيبوني! لا تكونوا قساة إلى هذا الحد!! يا أيهذا الصوت البديع كم أعشقك وأذوب في أوتارك الفذة!!».

وانكفأ على نفسه يواصل البكاء والنحيب. منظره كان

مروعًا، مؤثرًا جدًا، حتى أن سناء انزوت بعيدًا وانخرطت هي الأخرى في بكاء صامت حراق. وبدا كأن المعزوفة أشفقت علينا فابتعد صوتها ثم اضمحل تمامًا. اقتربت من إينال في وجل، وضعت يدي على كتفه محاولًا العثور في صوتي على نبرة تليق بمشاعره المرهفة:

- «لقد ضخمت الأمر يا إينال فاهدأ وقم بنا نعود إلى السفينة لنلحق بموعد العشاء فلا بد أنك جعت مثلي!».

إلا أنه لم يهدأ. كان كمن فقد جميع أهله في حادث قدري مأساوي، فوقف ذاهلًا عن تلقي العزاء، تهدج صوته:

- «لا يا حسين! المسألة ليست بالبساطة التي تتصورها!! لقد انخطف قلبي بالفعل! ضاع مني! أشعر كأني كبرت مائة عام فوق عمري وأنني لا بد لي من أن أسترد قلبي الضائع في زمني المفقود!!»

- «يعني إيه؟!».

- «يجب أن تعلم أنه يوجد ها هنا شيء يخصني! نعم يخصني وحدي على وجه التحديد!! هو صحيح مجرد لحن فولكلوري مصري بالنسبة لك ولسناء التقيتماه في الغربة فأثار شجنكما! أما بالنسبة لي فإن هذا اللحن يتجاوز حدوده النغمية! إنه بمثابة رسالة لي شديدة اللهجة شديدة الأهمية!! رسالة لي أنا وحدي دون كل المستمعين بهذا اللحن قديمًا وحديثًا!! ولا بد لي من أن أفك شفرتها وأن أفهم محتواها على وجه الدقة!».

شعرت أن الأمر قد دخل في نفق مظلم، شعرت بالإشفاق على نفسي وأنا أفكر بسرعة تمنعنا من الدخول في هذا النفق أبعد من هذه الخطوة الخطرة. أخذت إينال في حضني وضممته إلى صدري بقوة لأوقف انتفاضه، وضعت خدي على خده في مداعبة حنون. أومأت لسناء فأتت، بمرحها ذي الجاذبية القاهرة شبكت أصابع يسراها في أصابع اليد اليمنى لإينال فيما شبكت أنا أصابع يدي اليمنى في أصابع يده اليسرى ومضينا به كأننا زوجان يسحبان طفلهما الذي تعلم المشي حديثًا. كنت قد استرحت تمامًا حين تذكرت أن السفينة ستغادر الميناء غدًا في تمام العاشرة صباحًا..

ليلتذاك دعانا القبطان لقضاء السهرة في كابينه باعتبارها آخر سهرة لنا في هذا الميناء الذي يعتبر أبعد ميناء في أعالي بحر البلطيق، وابتهاجًا في نفس الوقت بوصول السفينة إليه في سلامة دونما أعطال تذكر في سفينة تبحر لأول مرة. كابين القبطان شديد الفخامة والأبهة، وثلاجته الكبيرة حافلة بأرقى أنواع المشروبات والسجائر، لا غرو فالسفينة تكتب باسمه في شهادة ميلادها منسوبة إليه في جميع الوثائق الرسمية.

سهرنا إلى وقت متأخر جدًّا من الليل، شربنا الكثير ودخّنا الأكثر ومززنا بالفستق واللوز وأشياء أخرى غريبة الشكل مستساغة الطعم. جرجرت سناء إينال للحديث عن فكرته الرافضة لما يسمى بالعولمة؛ فأفاض في الحديث، أنعم الله عليه بفتوحات وتجليات بلورت فكرته جيدًا حتى صارت مقنعة تمامًا وانتشى بها القبطان أيما انتشاء وأشار بإبهامه إلى دولاب زجاجي خلف ظهره

ارتصت على رفوفه كتب ومجلات كثيرة، وقال:

- «هاكم كتاب قصة الحضارة لوِل ديورانت يقطع الطريق على فكرة العولمة هذه ويؤكد أن التقدم الذي وصلت إليه البشرية اليوم إنما هو جهود حضارات كثيرة كبيرة توالدت من بعضها البعض!».

أثناء عودتنا إلى كابين «الأونر» كان إينال يبدو منشرح الصدر. وفيما يتوجه كل منا إلى غرفته قال إنه سيكمل سهرته إلى الصباح يكتب ما استفاده من هذه المناقشة وأنه عند إقلاع السفينة سيكون قد استغرق في النوم وهذا من حسن حظه؛ إذ إنه يكره كل مشاهد الوداع للبشر أو للأماكن فالرجاء كل الرجاء أن لا أوقظه أو أدع غيري يوقظه من النوم مهما كانت الظروف والأسباب. كان بالفعل مرهقًا جدًا، وكنت الآخر كذلك ومع ذلك شاغبتني سناء فاستجبت في الحال فطالت مدة اللقاء بشكل غير طبيعي إلا أنه كان جميلًا وفريدًا. وفيما نتمدد مرهقين والشمس ترمي دنانيرها الذهبية على الغرفة وعلينا همست لي سناء بأنها أثناء اندماجنا في اللقاء الحميم سمعت عكرشة في غرفة إينال، وأبدت خشيتها من أن يكون قد نال منه التعب تحت تأثير الشرب الذي جرعه بكثرة جنونية ويبدو أنه كان يستفرغ في المرحاض. لعب الفأر في عبي، أزحت الملاءة عن جسدي العاري تمامًا، تزملت ببشكير الحمام، تسللت على أطراف أصابعي إلى غرفة إينال. رأيت الباب مقفولًا، توقفت أنصت لبرهة، ثم دفعت الباب في رفق ونظرت عبر فرجة ضيقة فرأيت إينال متمددًا على السرير متكلفتا بالبطانية وفي حالة استغراق في نوم عميق لا بد بالفعل أن يكون نهاية شرب بالحجم

الذي شربه إينال. سحبت الباب ومضيت متمنيًا له أرزًا باللبن مع الملائكة، وعرجت على الحمام فألقيت بجسدي تحت الماء الهاطل؛ ثم لحقت بي سناء فتبادلنا دعك الظهر بالليفة. وأخيرًا لبسنا ثيابنا وخرجنا إلى الكويرته وطلبنا حليبًا ساخنًا قبل الفطور، ونبهنا على صالون الطعام بألا يرن الهاتف في غرفة إينال لأنه مرهق ونائم ويفضل عدم إزعاجه. وبعد تناول الفطور صعدنا إلى غرفة (البريدج) أو قيادة السفينة لكي نشهد المناورة التي تجريها السفينة تأهباً للإقلاع.

وإنه لمن الممتع حقًا أن تشهد الميناء لحظة الإقلاع فكأن المدينة كلها هي التي تتحرك فوق قرص دائري لتريك نفسها من جميع الزوايا، في حين أن السفينة هي التي تدور ببطء لتعتدل وتأخذ وجهتها في الطريق المرسوم. بعد الإقلاع نزلنا إلى الصالون حيث تناولنا وجبة الغداء، ثم صعدنا إلى الكابين واربت باب غرفة إينال ونظرت فرأيته ما زال متكلفتًا بالغطاء متصلب الجسد كالميت؛ فأشفقت عليه وتركته حتى يشبع من النوم فيصحو وحده. وحينما استدعينا للعشاء كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف مساء وكانت السفينة أمست في عرض البحر لا شيء يرى على الإطلاق غير الموج من جميع الجهات وراودني خاطر بأنني يجب أن أوقظ إينال فلربما يكون معتلًا بالفعل فنسعفه، وله أن يعاود النوم إذا أراد بعد تناول العشاء. نقرت على الباب، ناديت، فتحت الباب، ناديت: «إينال! إينال! إصحى بقى كفاية نوم!»، فلم يرد ولم يتقلب. مددت يدي لأهزه، فإذا بيدي تغوص في شيء هش. فزعت، شهقت. لحقت بي سناء فزعة بعد أن كانت محرجة من دخول غرفة رجل نائم فيها.

نزعت الغطاء فإذا به كان ملفوفًا حول وسادة بشكل يوحي لمن يراه بأنه جسد رجل نائم. ضربت سناء صدرها بيدها وصرخت.

- «يا دي المصيبة السودة حنعمل إيه دلوقت؟!».

تسمرت في وقفتي عاجزًا عن كل نطق وحركة حيث أصيب رأسي بالشلل. صرخت سناء في وجهي بحدة:

- «حسين حنعمل إيه في المصيبة دي؟ ما لك جرى لك إيه يا حسين؟!».

ثم تركتني وهرولت خارجة تتخبط في المقاعد وهي تولول كامرأة ذاهبة إلى قسم الشرطة لتبلغ عن ضياع ابنها. كانت بالفعل تحب إينال كواحد من أنضج زملائنا رجولة وأكثرهم أدبًا وأخلاقًا، فليس غريبًا أن تتوتر وتشعر بالفجيعة..

تبعتها صاغرًا. عاجزًا. كانت أسرع من الصوت وهي تقتحم كابين القبطان كالقذيفة، وإذ لحقت بها كان القبطان شاحب الوجه شاعرًا بالهول العظيم وكان من فزعه يصرخ في سناء لكي تتكلم بهدوء حتى يفهم جلية الخبر؛ فلما رآني هرع يستنجد بي مستفهمًا، ولكنني لم أكن قد توصلت بعد إلى الصيغة الملائمة لإبلاغه بحقيقة ما حدث.

تمت

المعادي - شارع النصر - مساء

2001 - 10 - 1

قُدَّاس الشيخ رضوان!

الشيخ رضوان المالكي ليس شيخًا على الإطلاق ولا يمت بأية صلة لأية مشيخة، ومع ذلك فجميع أهالي بلدتنا «شباس عمير» ينادونه بلقب الشيخ؛ ربما لأن لفظة الشيخ باتت جزءًا من اسمه مثلما تدخل ألقاب كثيرة في أسماء الناس عندنا بل تدون في شهادات ميلادهم كالشباس والفرماوي والقاضي والنجار، وما إلى ذلك.

العجيب أن اللقب الذي كان جديرًا بأن يدخل في تركيب اسمه وهو النجار لم ترد له إشارة في اسمه قط؛ ذلك أن شهرته كنجار أزاحت عن الأذهان لفظة التعريف: النجار، فأصبحت بلا ضرورة لأنك ما إن تذكر اسم الشيخ رضوان المالكي في بلدتنا حتى تتداعى في ذهنك أعمال النجارة وأدواتها بل تكاد تشم رائحة الخشب الجديد وصدأ المسامير القديمة والنشارة التي تفرش أرض ورشته كسجادة بدائية لا تخلو من جمال ساحر، سيما في زمن المطر الغزير بأوحاله التي تعجن الأرض.

لا أحد في بلدتنا - حتى في عائلة المالكي نفسها وهم أخوال لأمي - يذكر متى نودي الشيخ رضوان المالكي بلقب

الشيخ لأول مرة، ولا كيف التصق به الاسم مع أنه لا يقرأ ولا يكتب؛ ولكن الرجال في محيط عائلتنا يبتسمون في أريحية إذا جاءت هذه السيرة في أي قعدة عائلية، ثم يعلق الكبار منهم بأن لقب الشيخ على كل حال لم يغترب؛ لأن عائلة المالكي في الواقع متدينة طول عمرها وفيها دائمًا أبدًا أكثر من شيخ رسمي تعلم في الأزهر ولبس الجبة والعمامة وأمَّ الناس في الصلاة وخطب على منبر الجمعة عن جدارة. وصحيح أن العائلة يكثر فيها الفُساق والمنحلون والمدمنون بصورة تكاد تنافس صورتهم التدينية البارزة إلا أن الغالب على سمعتها مظهر الاحترام في نهاية الأمر.

ثم إن الشيخ رضوان نفسه رجل طيب القلب مؤمن لا يؤجل فرضًا من الفروض بل إنه أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه.. ومن هنا فإنه لا شك يستحق المشيخة. ويقول أبي في نبرة تشي بالتحيز العاطفي للشيخ رضوان رغم أنه لا يحب العائلة برمتها، ولولا أنهم أخوال أمي لما أقام لهم وزنًا على الإطلاق، يقول مشوحًا:

- «شيخ شيخ انتوا خسرانين حاجة! ولا تكونش المشيخة دي لقب ينعم به الملك على من يرفعه من الرعية كالباشا والبك؟ الناس شيَّخت الشيخ رضوان! خلاص! فليكن الشيخ رضوان! ماذا يضركم في هذا؟».

يخشى الخبثاء اللؤماء من عائلتنا - وبخاصة النساء العجوزات - أن يجهروا بسبب الاعتراض القابع في نفوسهم

جميعًا بما فيهم أبي نفسه. تكاد عيون الحاجة «نحمده» - وهي زوجة أكبر أعمامي وبنت عمه في الوقت نفسه - تسلق أبي بشواظ من لهب تبعثه من ركنها الأثير خلف بوابة الدار، وهي مع ذلك نظرات باسمة هازئة مشرقة بكثافة السنين على ملامحها الجارمة ذات الجمال العتيق الباقي رغم بلوغها السبعين من العمر، ودون أن تنطق بحرف نفهم جميعٌ ماذا تعني هذه النظرة. إننا نعرف ترجمتها الصوتية من فرط ما سمعناه من تعليقات على تصرفات الشيخ رضوان المالكي من أنه «فلاتي» يعشق قعدة النسوان ويتسلل بينهن في نعومة فائقة يتبادل معهن الودْوَدَة ومسك سيرة الناس.

وقد أكد جميع الرجال الذين يسهرون في مندرتنا أن النسوان فقدن الشعور برجولية الشيخ رضوان المالكي؛ ولهذا يطلن الجلوس معه دون أي شعور بالحرج، ربما لبراعته في تقليد لهجة النسوان وحركاتهن والتوسل بضرب الحاجب وغمز الشفتين وتسبيل العينين برغم الرجولية المفرطة في مظهره؛ إذ هو مشعراني، كثيف الشعر في كل ملليمتر مربع من جسده حتى ليبدو من بعيد كحيوان أليف، كقرد كثيف الشعر، في الصدر غابة وعلى ظاهر اليدين غابة وفي الساقين غابات، ناهيك عن لحية تطلب الحلاقة والتشذيب كل بضع ساعات إلا أنه لا يفيق لها فيتركها إلى أن تستحق الحلقة - شعرًا وذقنا وتسوية شارب - الخمسة المليمات التي يدفعها لفتحي سعادة المزين؛ كما أن صوته - مهما نعَّمه ورقَّقه وشذب خشونته - رجولي صرف. ومن هنا الطرافة، فرجل بارز الرجولة - وطيب القلب في آن،

ومبرأ من السلوك المشين ـ لا بد من أن يكون طريفًا خفيف الظل حين يتخاطب مع النسوان بلهجتهن ومفرداتهن ونفس حركاتهن في التلويح بالأيدي المفرودة الأصابع.

في رأي حكماء عائلتنا أنه أجبر على أن يصير هكذا لأن النسوان هن المجال الحيوي في حياته، فهو كنجار متعدد المهارات، من إصلاح السواقي إلى صنع الأبواب والشبابيك والأسقف، إلى صنع الكنب البلدي والدواليب والصناديق، إلى تصليح، بل وتصنيع، الضَبّة الخشبية التي تفتح وتغلق أبواب الدور؛ وكل هذه الأعمال زبائنها في معظمهم من النسوان، هن اللائي يستدعينه أو يذهبن إليه في الورشة ويتفقن معه ويساومنه ويناكفنه في المساومة، وهو يلتف حولهن مقدمًا فيصاحبهن ويتحدث معهن في الخصوصيات بروح أخوية ودودة؛ حتى ينجح في تخديرهن وامتلاك السيطرة عليهن فينجو بذلك من المساومة وينفي عن نفسه اللوم والحرج إذا ما اضطر لطلب التشهيل في دفع باقي الحساب.

أما كون الشيخ رضوان المالكي بهذا الأسلوب في الحياة قد تمكن من معرفة كل أسرار بيوت البلدة وبالتفصيل من كبيرة لصغيرة، فإن هذا لا خطر منه في الواقع؛ لأن الشيخ رضوان والحق يقال كالبحر تهدر أمواجه فتكتسح كل ما يعرفه وتلقي به إلى بعيد أو تهبط به إلى قاع سحيق لا يستطيع بلوغه أحد. إنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما نخسته في جنبه معلومة جديدة ذات حساسية من نوع ما، تلمع عيناه الزرقاوان بما يبدو أنه خبيث كخبث المشعوذين لكن البريق سرعان ما ينطفئ،

وتنسدل أهدابه في ورع وتقوى، ثم ما يلبث حتى يرفع رأسه للسماء باسطًا يديه مرددًا في ابتهال:

- «اكفنا شر الفضايح يا رب!».

وفي الحال يتجاهل الأمر كأن لم يكن..

نسوان البلدة يعاملنه كقط أليف وإن كان ذكرًا شرسًا عند اللزوم. يتردد في مندرتنا باستمرار. أنهن يحببنه لأنه ليس لديه أية مشكلة على الإطلاق.. فكل التصليحات «العقدة» التي يعجز عنها الأسطوات جميعًا من المؤكد أن حل عقدتها سيكون على يد الشيخ رضوان المالكي، لا بد من أن يخترع لها حلًا بسيطًا جدًّا لكنه لفرط بساطته غاب عن أذهان الكثيرين.. وحين يجوع في أي دار من دور البلدة يطلب الأكل في الحال، والأكل عنده اسمه: لقمة: مفيش لقمة يا أسيادنا؟ وبصلة المحب عنده خروف، رغيف وعزق لفت، عودين من فجل، طبق مش، باذنجانة محدقة، حزمة سريس، كله خير وبركة، حشو معدة والسلام، والحمد لله.. إذا وجد أن لباسه لم يغسل بعد ويريد تغيير اللباس فلا حرج عنده مطلقًا في أن يرتدي لباس زوجته الحاجة ست، فالتفصيلة واحدة، لباس بحجر ودكة ذات شراريب مع اختلاف لون القماش بين حريمي ورجالي وهذا ما لا يقيم له وزنًا..

عياله الثلاثة رجال لهم أحفاد، وعدة الورشة موزعة بينهم، دائمًا أبدًا يكتشف أن المنشار الكبير مع القادوم الكبير سرح بهما عباس لإصلاح ساقية، وأن السراق - المنشار الشريحة - أخذه محمد وراح ينشئ باب خُنّ للدجاج في دار بعيدة، وأن الفارة

والعتلة مع عبد الحميد في مشوار لتجهيز كنب لإحدى العرائس، ولكن لا شيء من ذلك يعطله، لكل أداة عنده بديل يخترعه في الحال، إنه من فرط الدرية والحرفنة والخبرة الطويلة يكاد يستغني عن كافة الأدوات؛ لأن أصابعه قد احتوت مواهب الأدوات، سيما وأن عياله الثلاثة قد تكلفوا عنه بجميع المهمات الثقيلة وتركوا له الأعمال البسيطة التي لا تحتاج إلا لأبسط الأدوات قياسًا على خبراته العميقة.

جميع الرجال كذلك يحبونه بعمق وإن سخروا منه واستهجنوا الكثير من تصرفاته التي تبدو لهم خرقاء خارجة على المألوف. على أن هؤلاء وأولئك يذبن وجدًا وطربًا حين يكون الشيخ رضوان المالكي مندمجًا في العمل متوحدًا مع نفسه الطروبة مسترسلًا في الغناء لنفقسه بصوت خافت، حينئذ يبدو وكأن السماء نفسها تغني، بكل ما في الفضاء من طيور مغردة، الطير والحيوان والحشرات والنباتات وكل ما يتنفس على الأرض يصير نغمًا شجيًا ينساب متدفقًا، فيمتلئ المكان كله بمشاعر زاحفة على الأرض محلقة في السماء تبعث الدفء والقشعريرة في النفوس، قد تدفعها إلى البكاء بحرقة إلا أنها حتى وإن بكت فمن البهجة حيث ينفض النغم القلوب نفضًا يخلصها من أوجاعها ويصهر السموم المتراكمة على الصدور فتهمي دمعًا على الخدود.

لا غرو فالكل يعرف أن الشيخ رضوان المالكي كان المؤذن الرئيسي للجامع الكبير في وسط البلد في عز شبابه، في استغاثة الفجر ينساب صوته إلى الأفئدة المتدثرة بالأحرمة الثقيلة فيوسع

أعصاب الأجسام النائمة يضاعف حجمها فينحسر عنها الغطاء فتنهض واقفة تلهج بالأدعية، كل واحد أو واحدة يصحو لحظتئذ يعيد صياغة الاستغاثة في نسيج خاص يدخل في سياق كل عبارة ليرصعها بدعواته وابتهالاته الذاتية الخاصة.

ورغم أنه قد هجر استغاثة الفجر واستغاثة الجمعة منذ ما يقرب من عشرين عامًا حيث أصيب بمرض الروماتيزم فلم يعد يقوى على الصحو قبل موعد الفجر في عز الصقيع؛ فإن الأذان في بلدتنا لا يزال مرتبطًا باسمه، مع أن المساجد عندنا استقطبت مآذنها شبانًا كثيرين ذوي أصوات جميلة قوية.

حين يلتبس الوقت على الناس في لحظات العمل يتساءلون وهم ينظرون في ساعاتهم: «الشيخ رضوان أدن ولا لسه؟». ويقول بعضهم عند تحديد المواعيد: «أول ما تسمع الشيخ رضوان بيأدن الفجر تيجي تخبط عليّ». في قلب كل واحد من أهالينا وجع حميم مبهج غرسه فيه صوت الشيخ رضوان المالكي باستغاثته للفجر التي كانت تستغرق ما يقرب من نصف ساعة، يصول فيها صوته ويجول باكيًا نائحًا عاصرًا دموع الورع والتقوى..

من حسن حظي أن طفولتي أدركت طرفًا غير قليل من تلك الاستغاثات الرضوانية الجبارة حيث كانت مشاعر الرهبة تمزقني وتبددني فأتوه تحت تأثيرين عنيفين: صوت الشيخ رضوان وما يضخه في الفضاء الواسع الخالي من جمرات لهب تضيء وتبعث الدفء مع القشعريرة في أوصالي، وصوت أمي وهي تستقطب

عدوي النواح المرعوش بجيشان مروع فيما هي تردد خلفه الأدعية فكأنها تنسج أمام ناظري سجادة مسطورة بعبارات الاستغاثة ومنقوشة بدعوات أمي بأن يغفر الله لها ولكافة العباد وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا ويبسط لنا الرزق ويسدد خطانا بالتوفيق..

من طيبة قلبها تظن أن الله في حاجة لأن تذكره بأسماء عيالها فتذكرهم له واحدًا واحدًا.

ومنذ ذلك التاريخ وأنا أحب الشيخ رضوان المالكي وأعتبره فاكهة بشرية عبقرية المذاق حقًّا، أحب شكله الذي لم يتغير طوال عمره الذي عاصرته، نفس الحنك الواسع تطل من بين شفتيه الممتلئتين أسنان كبيرة عليها طبقات من صدأ الشاي الثقيل وتدخين السجاير اللف، وشاربه الخفيف أبيض الشعر كبقايا فرشاة نحل الزمان وبرها؛ على شفتيه ابتسامة لا تجف ولا تغيب حتى وهو منفعل في الكلام بصوته الهادئ الحكيم المريح المؤنس كصوت شخليلة الأطفال ما إن ينطق حتى يكف الجميع عن اللغط وينصتون في انتباه وشغف..

وإذ يتكلم فإنه قد لا يقول شيئًا مهمًا بل الغالب أنه سيقول كلمة شديدة الهيافة لو قالها أحد غيره لأسكته الناس بزفة من السخرية والاستنكار لكنها عندما يقولها تصير بقدرة قادر كلمة مهمة تستحق أن يكون فيها فصل الخطاب؛ مما يجعل أبي يصفق كفًّا على كف من فرط العجب ويقول لمن حواليه: على فكرة يا جماعة إن الكلام كله ليس مُهمًّا في ذاته مَهْما كان

ثقيل الوزن ثمين المعاني إنما المهم حقًّا هو الصوت الذي يقول الكلام وكيف يقوله بشكل يرغم الناس على الاستماع إليه واستطعامه، وصوت الشيخ رضوان ينير الكلام بإيقاعه الحكيم فإذا ما كنا نظنه تافهًا ليس بتافه!..

غرام أبي بالشيخ رضوان المالكي معروف لجميع الناس؛ ليس فحسب لأنه من أخوال أمي بل لأنهما صديقان منذ الطفولة، فدار المالكي القديمة التي آلت ملكيتها إلى الشيخ رضوان، باعتباره أصغر إخوته حيث كان من يتزوج منهم يبني لنفسه بيتًا في أطراف البلد، ملاصقة لدارنا الكبيرة وبين الدارين منور مشترك ومفتوح على خلاء الحقول على شكل زاوية قائمة. دارنا في هذا السرداب الجميل الذي يتسع بالكاد لمرور حمارين محملين بالبرسيم. على يسارك وأنت داخل، وفي مواجهتها على الناصية المقابلة جدار الكنيسة الممتد أفقيًا بطول السرداب متجاوزًا حدود دارنا حيث ألحقت بها عدة دور يسكنها المعلم غطاس سمسار القطن، والمعلم إبراهيم صليب الموظف بمصلحة الشهر العقاري في مركز قلين، والمقدس عزيز عبده وإخوته الكثار وهم ورثة لأملاك أبيهم الشاسعة من أراض زراعية ونخيل يفوق الحصر.

ثم يتفرع السرداب عند نهاية دارنا إلى فرعين أحدهما يسبق الآخر؛ أما عند آخر دارنا فالسرداب يميل يمينًا ليلتحم بقناة تسري في أحشاء مساحة خضراء شاسعة تمتلئ بأشجار عتيقة عفية سامقة تطرح خوخًا وعنابًا ونبقًا وبرتقالًا وليمونًا.

وفي أحشائها البعيدة يتخفى قصر عائلة أبو سيف مالكة هذه الحديقة وهذه العائلة وإن كانت تقيم آنذاك في مدينة طنطا إلا أن كل شيء في الحديقة يبقى فوق الشجر إلى أن يحضر مندوب عن العائلة ذات لحظة ليبيع الثمار للتجار في مهرجان بهيج تنتظره عيال بلدتنا بشغف لكي يملؤوا حجورهم بسواقط الثمر ونفايات الفرز الأوليّ.

وأما الفرع الآخر للسرداب فإن تشابه المباني يعطي جدار الكنيسة امتدادًا طويلًا يصل إلى حدود بحر السبيل، ثم يميل السرداب يسارًا لينعطف بعد قليل مكونًا حارة ضيقة متعرجة مع شاطئ بحر السبيل ملتحمة بالشارع العمومي، حيث تلتحق بحارة مقابلة تسكنها بضع عائلات من إخوتنا الأقباط وكلهم من ذوي الأطيان وبعضهم يعمل في الصرافة وتجارة الحبوب وبعضهم الآخر حِرفي: نجار أو خياط أو حداد أو بناء، وهم جميعًا يحظون برواج كبير في بلدتنا التي تثق بذممهم بغير حدود حيث لا أحد فيهم يكذب أو يدعي ما ليس فيه أو ينقض عهدًا أو يتأخر في موعد أو يطمع في أكثر من رزقه.

ولهذا فإن أبي لم يكن يفتح فمه بأي اعتراض حين يسمع عمتي تفيدة - شقيقته الكبرى - تطري حسن الجيرة بقصائد ومدح في أمانة الست أم جرجس الخياطة التي تخيط لنسوان الدار كلهن وترد إليهن ما تبقى من فضلات الأقمشة أو تصنع منها الطواقي والمناديل.

أبي نفسه لو حصر أصدقاءه الأعزاء لوجد أن أغلبهم من

القبط، يسهرون معه كل ليلة في مندرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل؛ وقبل أن أدرك الفرق بين الديانة الإسلامية والديانة المسيحية لم يكن يدور بخلدي أن هذه الوجوه المتشابهة في كل شيء، تتكلم نفس الكلام تلبس نفس الثياب تأكل نفس الطعام تحكى نفس الحواديت تترنم بنفس الأغاني فيما تتبادل كوبات الشاي ولف السجاير يمكن أن يكونوا طائفتين لكل منهما عقيدتها وصلواتها وصومها المختلف.

وحتى بعد أن كبرت وأدركت البعد الإنساني للديانات بقيت الملامح تلتبس عليّ إلى اليوم، فكثيرًا ما أنادي على أحد الرجال باعتباره عم محمد رمضان فإذا اقتربت منه اتضح لي أنه عم صليب.

والعجيب أن الملامح واحدة إلى حد التطابق والأعجب أن كليهما فلاح ونجار سواقي معًا، كما أن الجلباب يشبه الجلباب. ولم أكن وحدي من يقع في هذا اللبس، فالشيخ رضوان المالكي نفسه مشهور في حارتنا بالمقدس عزوز، كما أن المقدس عزوز مشهور - ربما في البلدة كلها - بالشيخ رضوان وذلك لشدة التطابق بينهما في القامة النحيفة الصلبة وفي المشية المفرشخة، وفي الشارب الأبيض واتساع الحنك وبروز الجبهة تحت الطاقية الصوف المنجعصة إلى الوراء بشكلها الهرمي كأنها ما بقي من تاج الملك مينا موحّد القطرين.

وكلاهما - الشيخ رضوان والمقدس عزوز - سعيد باسمه المستعار، بل إنهما حينما يلتقيان ليلًا في مندرتنا حول أكواب

الشاي الثقيل والجوزة يتبادلان التنكيت بصورة تهز جدران المندرة من فرقعة القهقهات المرحة المنطلقة، ففي كل ليلة يجيء أحدهما بدليل جديد يؤكد ادعاءه بأن أم الآخر كانت «تتوحم» على أبيه.

في إحدى الليالي دخلت عمتي تفيدة لتعلن احتجاجها على هذه «المحششة» التي حرمتها النوم، إلا أنها استحت من الرجال فدفعت بعكازها إلى الأمام وجلست على طرف الكنبة القريبة من باب الدهاليز، وإذ ألمت بطرف من المهاترة الدائرة أرادت أن تعالج الخلاف فدرغمته؛ قالت إن الشيخ رضوان مولود أمامها داخل حرم الكنيسة حيث كانت أمه وهي حامل فيه قد اشترت عشر شمعات وفاءً لنذر على ذمة ماري جرجس كانت قد نذرته بين يدي الست أم أستير حينما ذهبت إليها تستشيرها في أمر انقطاع الحمل عنها طوال أربع سنوات، فأشارت عليها أم أستير أن تستبارك بماري جرجس وتنذر له نذرًا وهو يتوسط لها عند الرب كي يعيد إليها الخصوبة، فالتزمت أم رضوان بهذا النذر فلما حملت بالفعل نسيت أمره لكنها شعرت بأن المخاض تأخر والجنين كف عن الحركة في بطنها فحينئذ تذكرت النذر فارتعدت، ومن فورها باعت تحويشة بيض الدجاج واشترت الشمعات ودخلت الكنيسة لتضعها بيديها فوق الهيكل فما إن دلفت إلى الباحة حتى جأرت بالصراخ وتكومت على الأرض فما كدنا نلحقها حتى كان الشيخ رضوان تحت حجرها ويرفس.

كانت عمتي تفيدة تريد إيقاف الضحك ففجرته تفجيرًا؛ إلا أنها دقت الأرض بعكازها في قوة فانتبهوا، فقالت أما المقدس

عزوز فقد ولد في عزبة نصيف ولم تجيء عائلته إلى بلدتنا الا وهو صبي.

شد أبي نفسًا من الجوزة ولمعت عيناه بخبث لطيف وهو يقول:

- «إنتي نستي حاجة مهمة يا تفيدة يا اختي..».

فدقت الأرض بعكازها صائحة:

- «صبرك بالله عليّ.. أنتم صدعتم رؤوسكم ورؤوسنا من أجل أن تعرفوا سر الشبه بين الشيخ رضوان والمقدس عزوز مع أنكم لو هرشتم في أدمغتكم لتذكرتم السبب!.. إن الشيخ رضوان راضع من ثدي أم المقدس عزوز!».

حط عليهم صمت مفاجئ فبدوا كالأطفال حين يسمعون خبرًا عن عفريت قادم؛ لمعت عيونهم بالرعب والشغف، نكس بعضهم رأسه في محاولة لعصر دماغه. وطرقع أبي بأصبعيه في ابتهاج صائحًا:

- «بس بس بس! مضبوط! تذكرت! فعلًا أم الشيخ رضوان جف لبنها بعد ولادته مباشرة!».

شوحت عمتي تفيدة بالعكاز كأنها تهدده بالضرب وشخطت فيه بقوة:

- «بل ماتت بعد ولادته بأيام! حمى النفاس خطفتها من وسطنا «خطف» يا حسرة قلبي عليها!.. بحثوا عن

مرضع فجاءتهم أم المقدس عزوز غاضبة! قالت كيف تبحثون عن مرضع بالإيجار وأنا موجودة بجواركم! أيامها كانت ترضع أختك ما تيلده يا مقدس أتذكر؟».

أومأ المقدس عزوز برأسه في استعبار والبسمة الخجولة على شفتيه كأنه يتمثل شكل أمه لو كانت حاضرة الآن وسمعت هذا الإطراء على ذلك العمل النبيل.

ذلك التصريح الذي أدلت به عمتي تفيدة في تلك الليلة البعيدة فسر لي الكثير مما لم أكن أدركه من تصرفات الشيخ رضوان المالكي تجاه الكنيسة.

كان دائمًا أبدًا ينظر إليها بنفس القدر من الحنو الذي يربطه بجامع العصاروة الواقف على مبعدة خطوات قليلة. كان الشيخ رضوان هو المفوض من قبل عموم أهل الناحية لمتابعة صيانة طلمبة المياه الخاصة بجامع العصاروة، وتمتد متابعته إلى صيانة حنفيات الوضوء المتصلة بالصهاريج، وحنفيات دورات المياه.

ودائمًا أبدًا نراه يجمع تبرعات قليلة لإصلاح أو استبدال الحنفيات ولا يهمد حتى تفاجأ ذات يوم بأنه قد أفلح في تغيير معظمها، ودائمًا أبدًا يوصي خطيب الجامع بالتنبيه على الناس بالتزام الرفق في التعامل مع الحنفيات وبعدم الاستحمام في دورات المياه.

أما بالنسبة للكنيسة فإن عنايته بها تمضي في غير تظاهر، كأن تفاجأ ذات يوم بأنه في الورشة منهمك في التحاور مع

قطعة خشب يحاول خرطها على طراز المشربيات لكي يثبتها مكان قطعة بالية في الهيكل..

غير أنني كنت أعرف ـ بحكم الجيرة ـ أن علاقة الشيخ رضوان بالكنيسة لها جانب خفي لا يعرفه إلا سكان حارتنا. أذكر أنني ذات يوم بعيد جدًّا، وفيما كنت ألعب النحلة تحت شباك مندرتنا مع محمد بن الشيخ رضوان، فإذا بغناء هادئ ينبعث من داخل الورشة؛ كان صوت الشيخ رضوان أشبه بصوت الرباب يصدر أنغامًا حادة ترعش البدن ويقف لها شعر الرأس.

رميت النحلة وانصرفت للإصغاء وقد أصابتني بلبلة؛ فهذه الأنغام وإن فاجأتني وزلزلتني بدت مألوفة لي، إنها نفس الأنغام التي سمعتها أكثر من مرة تصعد من داخل الكنيسة أثناء ما يسمونه بقداس الأحد؛ انتبهت لحظتها إلى أن هذا القداس لم يعد يقام منذ بضع سنوات، حتى ذلك الرجل اللطيف ذو العمامة السوداء واللحية السوداء والرداء الأسود، الذي كنا نهرج جميعًا لنسلم عليه ونقول له كما يقول الكبار: يا بونا، وكان الجميع يسلمون عليه بحرارة ويطلبون منه الدعاء، وكان يوزع علينا حبات الكرملة والطوفي.

كنا نفرح بقدومه جدًّا، ربما من أجل ذلك المهرجان الذي تقيمه الكنيسة حيث صوت الترانيم الراعشة للأبدان فنتسلق الأسطح ونتسلل إلى الداخل ونتشعلق في النوافذ العالية فوق أكتاف أمهاتنا لنرى صفوفًا من رجال يلبسون ثيابًا غريبة متشابهة متوحشة، يضربون الكاسات ويحملون المباخر ويقومون

بحركات قريبة الشبه بحركات الذاكرين في الحضرات وحركات المصلين في المساجد إلا أنهم لا يركعون ولا يسجدون، مع أن أبي قال لي إن هذه هي صلوات إخوتنا الأقباط. فلما سمعت تلك الأنغام من الشيخ رضوان المالكي فرحت كأنني نجحت في امتحان، وجريت إلى الورشة متوقعًا أن مهرجان الكنيسة سوف يعود بعد انقطاع.

لم يعبأ الشيخ رضوان بي وظل منخرطًا في الترانيم فيما يخطط بالقلم الكوبيا على شرائح من الخشب، سرعان ما انتبهت إلى أن هذه الأنغام الكنسية التي لم نكن نفهم ما تنطق به من كلام هي الآن على صوت الشيخ رضوان تنطق ببعض كلمات مفهومة يرد فيها ذكر النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وذكر الزمان الغدار، وابن آدم المغرور... قلت للشيخ رضوان بجرأة اعتادها مني:

- «أنت تغني غناء الكنيسة بكلام من عندك؟».

فضحك وتأملني مليًّا. فهمت من بريق عينيه أنه يستحسن ذكائي؛ ثم إذا به يقول:

- «براوة عليك يا عكروت! الكلام من عندي واللحن من عند الكنيسة! أنا أصلي أحب هذا الغناء وأذوب فيه لدرجة أني حفظته كله مع أنني لست أفهم من كلامهم إلا كلمة من الشرق وكلمة من الغرب! لكنني متأكد أن كلامهم في هذا الغناء مرفوع إلى رب السموات والأرض! وعلى كل حال فإنني حين يجيء هذا الغناء على بالي يرتعش قلبي ويضع على لساني هذا الكلام!».

وجدتني أسأله:

- «منذ مدة والكنيسة لا تغني فما السبب يا شيخ رضوان؟!».

انشرح وجهه الأبيض كالرغيف المحروق من حرارة الفرن، ثم هتف وهو يضع القلم الكوبيا فوق أذنه..

- «خلاص يا ولد ستغني هذا الأسبوع احتفالًا بعيد القيامة بعد ثلاثة أيام! الكنيسة كانت محتاجة للترميم وتهدد بالوقوع فوق رؤوس المصلين! و.. الأب الذي كان يوزع عليكم الكرملة قد هلك منذ حوالي سنتين يعني الله يرحمه! وقد عينوا أبا جديدًا سوف يأتي في العيد لإقامة القداس! الحمد لله انتهينا من ترميمها ولو دخلتها الآن ستجدها كالعروس! العبد لله قام بالواجب فأنا أحسن من يقيم الصلابات كما أن أحدًا لا يستطيع تجديد الهيكل مثلي! تعرف يا ولد! أجمل شيء في الدنيا أن يكون العبد خادمًا في بيوت الله!».

كنت واثقًا من صدقه، وأشعر بأن فرحته بعودة القداس قد انتقلت إليّ وراحت تسري في عروقي كجيوش من النمل.

جعلت أحسب الأيام في انتظار هذا المهرجان الغنائي البهيج. بعد يومين من محادثتي مع الشيخ رضوان بدأت وفود من الضيوف تملأ حارتنا وتصب في الكنيسة ونحن جميعًا - كبارًا وصغارًا - نحتفي بهم ونضع أنفسنا تحت أعينهم مستعدين لتقديم أية خدمة.

ثم بدا أن في الأمر مشكلة غامضة، حيث استدعى الشيخ رضوان إلى الكنيسة عدة مرات، وانتحى به البعض في أركان قصية عدة مرات وكان من الواضح أنهم يجهدون أنفسهم في محاولة لإقناعه بأمر ما، وهو يبدو شاردًا إلا أن وجهه انطبع عليه شعور حرت في تفسيره بين الشعور بالفرح والشعور بالحرج؛ مما أثار فضولي وحفزني على معرفة جلية الأمر، فكلما رأيته منزويًا في ركن يتحدث مع أحدهم أتسلل من خلفهما لأقف على مقربة منهما أحاول التقاط شواهد الكلام فما ظفرت من وراء ذلك بشيء..

إلى أن جاء اليوم الموعود؛ وكنت مارًّا أمام الباب الخلفي الذي يفتح على فناء الكنيسة المزروع ببعض أحواض الزهور؛ فتلكأت وصرت أسترق النظر؛ ثم تجرأت ودلفت إلى الداخل؛ فإذا بي أرى المعلم رزق الله الخياط واقفًا أمام رجل يرتدي لباس من يؤدون القداس، والمعلم رزق الله ممسك بالإبرة وقد راح يقيس الوسع في اللباس ويقطبه، ويضع عليه الوشاح، والحزام.

رفعت رأسي إلى وجه الرجل، فتجمدت الصوت في عيني من فرط الذهول؛ ذلك أن الرجل كان هو الشيخ رضوان المالكي. لم أستطع كتمان الخبر، جريت إلى دارنا، انتظرت حتى انتهى أبي من قراءة سورة يس التي يقرأها كل يوم مرة فيما بين العصر والمغرب؛ قال: صدق الله العظيم، وأغلق دفتي المصحف ونظر نحوي:

- «عاوز إيه يا ولد؟».

أبلغته بما رأيت؛ فانفشخ حنكه عن ابتسامة هتماء خفيفة الظل اكتشفت فيها الكثير من شقاوة الأطفال. ثم قال:

- «يعني وافق الشيخ رضوان!».

- «وافق على إيه؟».

صارت الابتسامة ضحكة متكسرة، من خلل فتافيتها جمعت تفاصيل الموقف: لقد هاجر من بلدتنا أحد أهم حفظة القدّاس وحامل نوته الموسيقية، ولم يبق إلا شبان صغار يلزمهم حافظ يضبطهم ويقودهم؛ ولما كان الشيخ رضوان من أحفظ الحفظة طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمان أمضاه في عشق القداس والألحان الكنسية فما المانع من أن يتطوع بإحياء القداس مع إخوتنا الأقباط؟ ها هو ذا الشيخ رضوان المالكي لم يجد مانعًا، كثّر خيره على كل حال..

هكذا أنهى أبي حديثه. ورغم نوبة الضحك التي ألمت به كان شيء ما في عينيه يشي بأنه هو الآخر لا يجد أي مانع في أن يتطوع الواحد بمثل هذه الخدمة البريئة النقية الخالصة لله وحدهوالواقع أن أبي ورفاق مندرتنا كانوا أكثر مني فضولًا، إذ بينما أنا منزو في ركن بعيد من فناء الكنيسة أتابع مبهورًا وقائع القداس وأرى الشيخ رضوان قد ذاب في الألحان وصار أشبه بملاك يطير محلقًا في فضاء النغم ليهبط في دفء وحرارة ليستقر في صدري يهدهده، لمحت أبي والرجال يدسون رؤوسهم على استحياء وينظرون كأطفال ضاعفت الرهبة من ملامحهم واعتقلت رغبتهم في الضحك بل سرعان ما اندمجوا في النغم

وشملتهم حالة من الورع؛ لولا أن صوت أذان العشاء فوق مئذنة جامع العصاروة والقريب جدًّا من موقع الكنيسة انتزعهم وسحب رؤوسهم.

سمعتهم يهرولون نحو المسجد، وسمعت صوت أبي يقول للرجال إن القدّاس على وشك الانتهاء وإن الشيخ رضوان - على فكرة - يمكنه اللحاق بصلاة العشاء جماعة إن كان لا يزال على وضوئه.

وبالفعل؛ لم يكن أبي وصحابه قد وصلوا إلى باب المسجد بعد حينما تسلل الشيخ رضوان منسلخًا من الصف تاركًا الشبان يكملون بقية الصلوات الختامية.

اندفعت جريًا لألتقيه عند الباب الكبير؛ لكنني اتخذت طريقي تلقائيًا إلى المسجد لأتوضأ بسرعة وكان المصلون قد انتهوا من أداء السنن واصطفوا خلف الشيخ الإمام عبد المقصود الجمال ونكسوا رؤوسهم يستمعون إلى ترتيل الإمام؛ ثم كبَّر الإمام وانحنى راكعًا فتهاوت خلفه جميع الصفوف راكعة تسبح باسم ربها الأعلى. وقبل أن يتأهب الإمام لعدل قامته دوي من خلفنا صوت الشيخ رضوان المالكي صائحًا:

- «إن الله مع الصابرين!».

فتمهل الإمام حتى سمعنا صوت الشيخ رضوان ينوي في اختصار: - «نويتُ.. الله أكبر.. الله أكبر».

لحظتئذ تذكرت أن الشيخ رضوان هو الذي يقوم بدور

المبلغ في كل صلاة، إذ تسجد الصفوف وتركع وتعتدل وتكبر بناءً على ترديداته المنغومة وراء الإمام؛ وبالفعل ما كدنا نعتدل واقفين حتى رن صوته مدويًا: ربنا اااا ولك الحمد.

المعادي - صباح الإثنين 21/يناير 2002

عيون القلب

أكثر ما أسعدني في شقتي الجديدة ـ فضلًا عن كونها في طابق علوي في ضاحية جديدة متاخمة للمدينة ـ أن لها شرفة بمساحة لا بأس بها تطل على شارعين؛ جانبي وخلفي، وثمة شجيرات بين حشائش وعشب أخضر في أكثر من رقعة في الشارعين.

لكن أكثر ما أقلقني فيها هو أن الشركة التي قامت ببناء هذه العمائر لحساب جمعية إسكان أهلية، قد تركت الطوابق الأرضية كلها مفتوحة من جميع الجهات؛ مجرد عمدان من الخرسانة المسلحة، قيل لأن الجمعية حريصة على راحة السكان وتفترض أنهم جميعًا من أصحاب السيارات.

فرأت أن هذه المساحات يمكن استخدامها كحظائر للسيارات. إلا أن الشبهات حامت بكثافة حول مجلس إدارة الجمعية وتأكدت باكتشاف اختلاسات كبيرة مما ألجأ محافظة القاهرة إلى حل مجلس الإدارة وتقديمه للمحاكمة، ربما تمهيدًا لترقية أعضائه إلى مناصب أعلى في الدولة، وعينت مجلسًا مؤقتًا استخسر هذه المساحات في السكان فقرر بيعها كدكاكين.

وبالفعل تم بيع جميع المساحات المطلة على أي شارع عمومي، لتتحول الضاحية إلى سويقة تجارية غوغائية لم ينج من صخبها إلا الشقق الجوانية المطلة على شوارع خلفية ضيقة كممرات للمشاة فحسب. صار للبوابين سطوة مرعبة، ولعيالهم الكثار ضجيج سافل يقضُّ مضاجع الموتى بضرب كرة القدم وصراخهم وشتائمهم لبعضهم البعض بأقذر الألفاظ.

فضلًا عن ذلك تحول البوابون إلى سماسرة لبيع الشقق والدكاكين، واختراع حيل جهنمية تمكن المغامرين من اغتصاب الدكاكين المطلة على الشوارع الخلفية والاستيلاء عليها بوضع اليد بذريعة استعدادهم للشراء إذا ما طرحت الدكاكين للبيع في مزاد علني قادم لا محالة. وتنحصر مهمة البوابين في التوسط بين المغتصبين وبعض موظفي الجمعية للحصول على قطعة الحديد المرقمة المدموغة بدامغ الجمعية والتي بموجبها وحدها يحق لحاملها التعاقد على عداد كهربائي باسمه، مما يثبت ملكيته المبدئية للعقار، وثمن هذه الحديدة يتراوح بين ألف إلى عدة آلاف من الجنيهات تدخل جيوب موظفي الجمعية.

بهذه الطريقة تمكن أصحاب الدكاكين المطلة على الشوارع العمومية من توسيع دكاكينهم بالعمق لدرجة أن بعضها أصبح يحتل مساحة العمارة بكاملها.

أصبح من المألوف أن يصحو سكان إحدى العمارات من النوم فإذا هم يفاجؤون بأن دكانًا أو أكثر قد تم تقفيله في غفلة منهم، وتحول إلى مقهى أو مخزن أو ورشه. وهكذا كنت أضع

يدي على قلبي كل يوم، فكلما صحوت من النوم أتجه مباشرة إلى الشرفة أو الشباك للاطمئنان على أن الدكاكين تحت عمارتنا والعمارات المقابلة لا تزال مفتوحة كبوابة جحا، تدخل إليها وتخرج منها من أي اتجاه إلى أي اتجاه.

وجودها هكذا كان يريحني رغم أنها مملوءة بالرطش والطوب والزلط والقمامة من مخلفات السكان الذين تبين لي بعد شهر واحد من مجاورتهم أنهم جميعًا أشد قذارة من هذه القمامة، غير حريصين على أية نظافة، بل يتخاذلون إذا عرضت عليهم أي مشروع للنظافة لن يكلفهم شيئًا سوى وضع القمامة في صفائح أمام شققهم ليمر الزبال ويلمها كل صباح؛ يجدون من السهل عليهم ربط القمامة في كيس من البلاستيك والتطويح بها من الشباك ليصك الأرض مطرقعًا مثيرًا للفزع، وله أن ينزل فوق سيارة فيهشم زجاجها، أو فوق دماغ أحد المارة فيشوه منظره. كما أنهم يستسلمون لسيطرة البوابين بشكل زري مريب؛ فتسيَّد البوابون، أصبحوا كأنهم أصحاب الضاحية والجميع سكان عندهم.

أما إن صاح أحد السكان في طلب أحد البوابين فإنه لن يجده على الإطلاق لحظة احتياجه إليه؛ لأن البواب إما يعمل نقاشًا أو مبيضًا أو فواعليًا في عمارات وشقق بعيدة، وإما يعمل سمسارًا يقضي النهار متجولًا بين العمائر مع الزبائن الذين لا ينقطع لهم سيل.

هم تشكيلة عجيبة من السكان لا يمكن اجتماعهم في

ضاحية واحدة أو عمارة واحدة لولا هذه العشوائية القدرية التي تم بها بيع وشراء هذه الشقق: العائدون من الإعارات كهولًا في آخر العمر، أو الذين لم يعودوا تمامًا فلا نرى بلكوناتهم مفتوحة إلا في شهور الصيف، مومسات الخليج اللائي كن من قبل خادمات في البيوت وفي الملاهي وقد عدن بسيارات فارهة ولهجة هوانمي مستعارة وسمجة تثير الغيظ وترفع الضغط من فرط زيفها وصفاقتها، تجار الانفتاح الذين يكدسون في محلاتهم بضائع مستوردة من اللبان والسكويت.. إلخ إلخ. وجميعهم مغرمون بالصخب لا يهنأ لهم عيش إلا في أواره المرتفع.

* * *

أكبر شبابيكي وأعرضها يطل على الشارع الخلفي، أما البلكونة فتطل على الشارع الجانبي. ورغم أن ردهة الشقة اتسعت لكتبي الكثيرة جدًّا، ولمكتبي الكبير الأثري بكرسيه الضخم الدوار ذي المسند العالي؛ فإنها اتسعت كذلك لصالون كلاسيكي وأنتريه حداثي التكوين وتربيزة سفرة بمقاعدها ونيشها، ولأجهزة تلفزيون وفيديو ومسجلات، وللأولاد يذاكرون أو يشاهدون الفيلم والتمثيلية أو يستمعون لعمرو دياب ومحمد فؤاد وحكيم أو يتشاجرون بحدة لأسباب لا حصر لها.

ولما كنت أطلب الهدوء وصفاء الذهن للقراءة والكتابة، ولا غنى لي عن النارجيلة بنارها ودخانها وحجارتها ودوشة دماغها؛ فقد قمت بتقفيل البلكونة بالخشب، ملأت حوائطها بالرفوف على شكل عيون وخانات تتسع لأوراقي الخاصة ومسوداتي، حتى

صار منظرها كأرشيف المجلة التي أعمل بها محررًا أدبيًّا. وقد صنع لي النجار بنكًا صغيرًا قصير القامة كبنك الجواهرجي وافق مزاجي الغريب بقعدته القريبة من الأرض حيث كل ما أحتاجه في متناول يدي.

أول يوم جلست فيه في هذه البلكونة بعد هذه التجهيزات كان المطر يهطل بغزارة. الشارع الجانبي ضيق، حتى ليبدو لي وأنا قاعد في الركن في البلكونة كأنه منور بين جدارين في عمارة واحدة، صف البلكونات المواجه لبلكونتي يصب في بلكونتي؛ ولهذا ظهر المطر كثيفًا ومخيفًا.

حينئذ رأيته مقبلًا من بعيد، بكامل هيئته التي أعرفها جيدًا وأميزها من بين مئات من أمثالها: المعطف الطويل المصنوع من وبر الجمال يحمل لونها إضافة إلى لون الغبار والقِدم والبهدلة؛ إذ هو لا يخلعه أبدًا حتى في الصيف وينام به في أي مكان يغلبه النوم فيه؛ البارات الرخيصة، أرصفة المحطات، المقاهي الشعبية. الكاب الكاروهات بلونه المزرق بلسانه الممدود فوق الجبين يخفي معالم الوجه مع النظارة الشمسية السوداء التي يداري بها احمرار عينيه من فرط السهر والسكر والإرهاق. قامته الطويلة على قوام نحيل، مشيته البطيئة الجذلة التي نجح بها في اخفاء الوهن والترهل لرجل على مشارف السبعين من العمر.

حنكه الأهتم غائر الشفتين إلى المدخل لا ينِي يلوك شيئًا ما، لعله قطعة أفيون، بلحة جوز الطيب، شيكولاته معجونة بمطبوخ الحشيش، حبة فول سوداني من بقايا المزة التي استعان

بها على احتمال طعم البراندي والروم والنبيذ وربما السبرتو الأبيض مخلوطًا بالكوكاكولا. جيوب المعطف جميعًا؛ الخارجية والداخلية، منتفخة كجراب الحاوي بأشياء غريبة لا يمكن اجتماعها إلا في جيب يوسف باسيلي رئيس أرشيف الصور بمجلة أهل الفن الأسبوعية: فول سوداني، كرملة، بلح، جوز الطيب، منزول مكون من أصناف متعددة من أنواع العطارة لتقوية الباه، دهان لإطالة مدة الجماع، بطحة براندي مبططة مدخرة لوقت يعجز فيه عن الذهاب إلى البار، بقايا شريحة خبز بفول وطعمية، لاسة إضافية غير المفرودة تحت ياقة المعطف الواقفة، بكرة خيط مشبوك فيها إبرة خياطة ومجموعة أزرار مختلفة الأحجام، مقص أظافر، مكنة لحلاقة الذقن، مظروف حكومي أصفر مطوي على مجموعة صور تاريخية نادرة لسعد زغلول أو عرابي أو النحاس أو منيرة المهدية أو بديعة مصابني مع الريحاني أو فاطمة رشدي مع عزيز عيد أو الملك فاروق مع إحدى الراقصات الشهيرات؛ لسوف يحتاج إليها واحد من المحررين الذين يسكرون معه في البار ولا بأس أن يبيعها له بالسعر الذي يريد.

إن يوسف باسيلي خبير في الصور الصحفية، له مدة خدمة طويلة في أعرق دور الصحف التي أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر في مصر. بحاسته الأرشيفية أصبح يعرف أهمية الصورة بالنسبة للموضوع الصحفي؛ بل أهمية وضع معين وزاوية معينة للصورة.

أكبر مكتبة للصور كانت تملكها هذه الدار التي تخصصت في المجلات المصورة، تضم بلايين الصور النادرة الثمينة لجميع

رجالات السياسة والفن والمجتمع من أواخر القرن التاسع عشر حتى أواخر القرن العشرين؛ منها صور بيتية لحرم مصون التقطت سرًا وفي غفلة من أصحابها، صور في الدواوين، في القصر الملكي، في مجلس الوزراء، في البرلمان، في العوامات، في النوادي، في الملاهي الليلية، في غرف النوم، في الشوارع، في قاعات المفاوضات، في القطارات، في الحفلات في المناسبات الرسمية وغير الرسمية.

كل تاريخ مصر والمنطقة العربية، السياسي والاقتصادي والفني والأدبي والثقافي والاجتماعي والنضالي كان مترجمًا إلى صور فوتوغرافية ملتقطة بعيون حريفة وعدسات عالية الحساسية والجودة، تم تصنيفها وتوزيعها على ملفات داخل عيون خشبية في ردهة تمتد مئات الأمتار، كل عين مكتوب عليها بيان بما فيها من شخصيات وصور، حسب الحروف الأبجدية.

ثمة شانون كبير متكرر في الردهة يحوي كروتًا مشكوكة في مخاريز بطول الأدراج. لم يكن يوسف باسيلي محتاجًا لشد الدرج والتقليب في الكروت ليعرف أن ملف سعد زغلول أو الملك فؤاد أو الخديوي أو أم كلثوم أو شفيقة القبطية أو جورج أبيض رقمه في الملفات كذا؛ فلقد اكتسب دربة عامل جمع الحروف في المطابع العتيقة، يمد يده تلقائيًا وهو مغمض العينين إلى الحوض الخشبي الممتلئ بالحرف المطلوب مخروطًا من الرصاص. المحرر يكتب على هامش موضوعه اقتراحًا بالصور المطلوبة أو بدائل ملائمة، فيذهب سكرتير التحرير التنفيذي بورقة من المخرج الفني القائم بالتوضيب إلى يوسف باسيلي في الأرشيف، الذي

يلقي على الورقة نظرة سريعة ليقول في الحال إن كانت موجودة أم مفقودة أم هي استهلكت وجاري استبدالها، إلا أنه سرعان ما يفتح ذهن السكرتير ومخرجه على بدائل للصور المطلوبة ربما كانت أهم وأجمل وأكثر إثارة وخدمة للموضوع.

حين ينفرد في الأرشيف برهط من المحررين الشبان الذين يدعونه على كأس في البار ويدعوهم على سيجارة حشيش أو وصفة جنسية ناجعة تضمن موت الزوجة في دبابيب الزوج؛ ينجلي مع سخونة الطاسة فيقترح عليهم موضوعات شائقة تعتبر خبطات صحفية مع أنها لا تحتاج كتابة، إنما تقوم على اختيار مجموعة من الصور الفوتوغرافية القديمة وربطها ببعضها بتعليقات ذكية تشرح المناسبات التي التقطت فيها. ذلك أنه قد حفظ مناسبات كل هاتيك الصور، وحرص على تدوين معلومات مهمة على ظهرها الأبيض بالقلم الرصاص؛ فلم تعد الصور مجرد لقطات خرساء، بل أصبحت تكاد تتكلم، وأصبح خيال يوسف باسيلي قادرًا على أن يقول لك وهو يشير بأصبعه الطويل الغليظ الخشن إلى صورة شخص يكلم شخصًا: إنه يقول له كذا وكذا حتى انظر ترى الانفعال على وجهه يثبت هذا، أو إنه يقول لنفسه كذا، أو: هو الآن ذاهب ليفعل كذا، ليلغي المعاهدة، ليسب ديك المندوب السامي، ليحضر حفلة أم كلثوم، ليسهر في عوامة المهدية.. إلخ إلخ.

الصور كثيرة وبلا حصر. وهو أريب ناصح، اهتدى إلى أصولها على النيجاتيف المخزون في مظاريف خاصة مستقلة في أدراج، كل مظروف مدوَّن عليه اسم المصور وعنوان الموضوع وتاريخ

التصوير ومكانه، فيا لهم من إداريين مهرة ـ هكذا يقول في تبجيل ـ أولئك الشوام أصحاب هذه الدار. هذه المظاريف في حد ذاتها ثروة تاريخية وصحفية إضافية، سيما وأن الكثيرين من أولئك المحررين الشبان وقتذاك أصبحوا الآن شخصيات بارزة كبيرة الحجم من أمثال فكري أباظة وعبد اللطيف حمزة وتوفيق دياب ولطفي جمعة ومحمد التابعي وأمينة السعيد ومصطفى أمين، وغيرهم.

بذريعة التجديد والاحلال اعتاد يوسف باسيلي التسلل إلى الحجرة الظلماء في معمل التحميض بالدار، ليكتشف محتويات كل نيجاتيف تحت الكشاف، يقوم بتحميض ما يشاء من الصور بما يريد من مقاسات، لتتجمع لديه مئات من أندر الصور، يضيف نسخًا منها إلى الأرشيف ويحتفظ لنفسه بنسخ تخصم أوراق تصويرها من النسبة المسموح بها للعادم. لو فتشوا بيته فلا بد من أنهم سيعثرون فيه على أكثر من نسخة من هذا الأرشيف النادر الخطير.

ولذلك فإن يوسف باسيلي حينما بلغ سن الإحالة إلى المعاش لم يكتئب؛ فأي مجلة من المجلات العربية تسعى لخطب وده سيّما وأنه كان في السر يزودها كلها بمختارات من الصور تحقق بها خبطاتها الصحفية وتثري أرشيفها الخاص. إلا أنه استقر به المقام في مجلة أهل الفن التي جرى تأميمها بعد الثورة وجيء لها برئيس تحرير من الضباط الأحرار.

التحق يوسف بهذه المجلة رئيسًا للأرشيف بمكافأة شهرية توازي حجم مرتبه السابق قبل الإحالة بما فيه البدلات والحوافز.

كان يخلب لب رئيس التحرير بصور يبرزها من جيب معطفه عند اللزوم لتخدم مقالات رئيس التحرير التي يدبجها في فضح العهد البائد. فيحصل بذلك على مكافآت إضافية تصرف في الحال، لتنفق في المساء في بارات وسط المدينة.

تبدأ رحلة النعنشة عصر كل يوم، وتنتهي بانتهاء الليل كله. قد لا يعجبه جو البار فيكتفي بزجاجتين من البيرة ينصرف بعدهما إلى بار آخر يطلب خمسينة براندي، في خمسينة روم، لا يوقفه عن طلب الخمسينة الثالثة إلا شروع البار في التشطيب. يلم نفسه، ينتقل إلى بار يعرف أنه يسهر حتى الصباح. قد يجده مزدحمًا لا مكان له فيه، قد يجده خاليًا من أصدقاء يستريح إليهم، قد يخطف كأسًا على الواقف ويشارك في الصخب بنكتة أو نكتتين، بقهقهة أو قهقهتين، قد يمشي مزمعًا البحث عن بار بعيد مجهول ليقتحمه ويتعرف عليه، قد يظل يمشي إلى أن يدركه الصباح على الطريق ليكتشف أنه ماض تلقائيًا إلى منزله في حي البساتين.

يسمي نفسه نقيب المشائين؛ فلديه على المشي صبر ودأب عجيبان لم يتمتع بهما أهل الخطوة من العارفين بالله أمثال عمر بن الفارض. ليس يعرف الركوب مطلقًا، لا سيارات الأجرة ولا الأتوبيسات ولا حتى الدواب.

وحتى إن أدركه في الطريق أحد معارفه من أصحاب السيارات الملاكي وما أكثرهم في دائرة أصدقائه، يدعوه الصديق للركوب لكي يوصله إلى أي مكان يشاء؛ فيعتذر بلباقة ولطف

اكتسبها من كبار الشخصيات التي احتك بها في بلاط صاحبة الجلالة. إلا أن التطجين البلدي المحبب إليه ما يلبث حتى يطغى عليه فيمزح مع صاحب السيارة بقفشات إباحية تتناول أعضاء الأم والأب بالتعريض، ثم يطلق ضحكته الطفولية الصافية وإن كان صوته الخشن يبتلع صفاءها بقهقهة عالية نشوانة منطلقة، غير مبال إن هو تلقى ردًّا أشد من قفشه، أو فوجىء بلسعة على قفاه سريعة مع اندفاع السيارة؛ فإذا هو يهرول خلف السيارة كأنه سيلحق بها، فيما يصيح بأعلى جعيره اللطيف الصبياني النشوان:

ـ «وله.. وله يا فلان.. يحموك في كنكة هاها.. ا.. ا..ي.. يلا يا مكفي على وشك هع هع.. فوت عليَّ بكرة وأنا أعمل لك اللي في بالك!؟؟».

ويواصل المشي إلى بيته في البساتين لا يكل ولا يمل. مشوار إن مشاه شاب قوي البنية ينام في رهقه يومين على الأقل. أما هو فلا أحد يعرف متى يصل إلى بيته، ولا متى نام واستيقظ؛ لكنه في الحادية عشرة صباحًا من كل يوم لا بد أن نسمع قهقهته في طرقة المجلة، ومشاكساته مع السعاة، ومساومته لعامل البوفيه حول فنجان قهوة يقوم هو بنفسه بصنعه لنفسه. إنه المشاء الأعظم في عصرنا، الوحيد الذي من المتوقع أن تراه في أي مكان، في أية لحظة، في أي جو، وما دمت توقعته فلا بد من أن تراه في الحال أو بعد برهة وجيزة، بنفس الخطوة المعهودة لا تزيد ولا تنقص، لا يهمه مطر أو صقيع أو صهد، لا تهمه حكومة في الليل البهيم.

على الرغم من سكره الدائم وغرابة مظهره عمره ما أمسكوه للتحري. إذا استوقفه أي ضابط استيفاء فسوف يألفه في الحال، ربما تبادل معه النكات والقهقهات فهو مصري صميم، مدموغ بالمصرية الحميمة في شكله، في لسانه، في صوته.

* * *

تأهبت ـ في قعدتي في البلكونة ـ لملاقة يوسف باسيلي ومعرفة سر مجيئه إلى هذه الضاحية الجديدة. جعلت أستجمع في ذهني بعض الألفاظ المنتقاة اللاذعة لأعاجله بها، من قبيل: «بتعمل إيه هنا يا د يا مرقوع أنت؟!»، متخيلًا منظره حين يرفع رأسه ليفاجأ بي في البلكونة، ويقيني من أنه سيرد قائلًا: «وحشتني يا مضروب جيت ابرّد نارك هاهاها.. ا..ي!».

إلا أنه كان أشبه باللقطة السينمائية التي تكبر كلما اقتربت ثم تختفي عن الشاشة. ذلك ما حدث بالضبط، ظل يقترب منذ بدء ظهوره في أول الشارع الخلفي، فما إن خففت لاستقباله مبتهجًا حتى غاب عن ناظري واختفى تمامًا.

ارتعشت مفاصلي وانتفض جسدي كله بعنف مفاجئ، وقفت مرتكنًا على حافة شباك البلكونة أبحث عنه في كل اتجاه دون أن أعثر له على أثر.

كان الوقت مموهًا مختلطًا، يأخذ صبغة المغرب مع أن الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا، حينما دخلت ابنتي بالشاي كنت أهم بالنزول للبحث عنه في ممرات الضاحية. لكنني جلست في إعياء، أسراب لا حصر لها من النمل راحت تتمشى في

عروقي فلم أعرف إن كنت بردانًا أم حرّانًا، كأن هطول المطر المتواصل قد تسرب تحت ثيابي ساخنًا لاسعًا. لقد تذكرت أن يوسف باسيلي قد مات منذ أكثر من عشر سنوات!!..

لماذا إذن تذكرته الآن؟! لا لم أتذكره بل رأيته رؤية العين بلحمه وشحمه، بل شممت رائحته، بل كان سمته ينحرف شيئًا فشيئًا عن الشارع الخلفي ليحكم الانعدال نحو بلكونتي، تكاد ابتسامته الهتماء تعلنني بأنه قادم خصيصًا لزيارتي وأنه إن كان له في هذه الضاحية الجديدة أحد فهو أنا على وجه التحديد وليس غيري.

وقعت في بلبلة، هل تراني رأيته بالفعل أم أنه محض تخيل؟ هل أضحك على نفسي؟.. نعم لقد رأيته بالفعل مجسدًا تمامًا بكامل هيئته. إن كان الأمر كذلك فلا بد أن الخيال قادر على إخراج الصورة من تلافيف الدماغ ووضعها أمام العين في حضور حي. ومع افتراض هذا، فما السر في حضوره الآن؟! هل ذكرني به المطر في هذه الحصة الصباحية لأنني كنت كثيرًا ما أراه أيام تشردي ماشيًا في الصباح المبكر تحت وابل من المطر فأستمد منه القدرة على الصمود؟! أم ذكرتني به هذه العيون الخشبية الشبيهة بأرشيف المجلة حيث قام هو بتصميمها للمجلة وهو يؤسس أرشيفًا لها؟! يجوز، ويجوز.

رحت أرشف الشاي محاولًا نسيان الأمر. جاءتني الجريدة مبللة بقطرات المطر. دفنت رأسي في عواميدها وأخبارها فلم أفق منها إلا على صوت آذان الظهر في زاوية مجهولة في إحدى

العمارات القريبة. كانت الشمس قد خرجت من الحمَّام عارية على استحياء تبعثر الريح بشكيرًا من السحاب الملون كان ملفوفًا حول خصرها ووجهها المشرق.

* * *

كان من الممكن أن يشغلني هذا الحادث ـ على طرافته ـ لوقت طويل لولا أن حادثًا أشد وأنكى قد وقع في اليوم نفسه بعد لحظات. ذلك أن الشمس حينما استجابة لغزلي، وبدأت تحوم حول بلكونتي وتشاغبني بالظهور حينًا والاختباء حينًا آخر وراء مشربية الضوء الفضي، رأيت من اللياقة أن أهبّ لاستقبالها وأدعوها للدخول في ضيافتي بكاملها. اتجهت بناظري إلى حيث تقعد هي على إفريز المشربية في رشاقة قطتي الرومية. دفعت رأسي في فتحة الشباك المحندق المطل على الشارع الخلفي. رفعت عيني محملقًا في الشمس مبتسمًا؛ فأجبرتني على أن أغض الطرف عنها. نظرت في الشارع الخلفي، ويا لهول ما رأيت. لقد وقع المحظور، فوجئت بدكان في العمارة المواجهة لعمارتنا كان مغلقًا منذ مدة طويلة ودلت تحرياتي بواسطة البوابين أنه تابع للكوافير الفاتح في العمارة المجاورة له، والذي تغاضينا عنه رغم كثرة العرائس التي تجيء إليه بزفة عارمة ذات ضجيج. يومها قلنا لا بأس فالكوافير مهنة نظيفة على أية حال، ونبهنا على الكوافير بعدم التصرف في المحل إلا بمعرفة الجمعية وبعلمنا وإلا فسوف نبلغ عنه بأنه يغتصب محلين بدون عقود. فكيف ومتى حدث ما أراه الآن؟..

الدكان مفتوح، على واجهته لافتة كبيرة مكتوب عليها: ورشة النصر لكهرباء وميكانيكا السيارات لصاحبها الأسطى شريف. عدد من السيارات تحتل الشارع مرفوعة الأغطية عن المحركات، ثمة صبيان بالعفاريت السوداء المزيتة يفكون ويربطون فيها، ويديرون المحركات بأصوات زاعقة متوالية تزلزل السمع وتملأ الهواء بدخان أسود عطن الرائحة، رجل ضخم الجثة ربعة القوام بكرش بارز يرتدي البنطلون الجنز والقميص الكاروهات، ويجلس على الرصيف العالي فوق كرسي من البلاستيك الأبيض، يمسك بمبسم الشيشة ويشخط في بلية وحمؤه وخيشة، بصوت حلقي بلطجي ممطوط، بألفاظ قبيحة مسممة تتوالى كالمدفع الرشاش بغير انقطاع.

تعكر دمي، فار حتى صعد إلى نافوخي وسال على أذني ورقبتي. ناديت البواب صارخًا كي يسمعني هذا البلطجي المقتحم. وقف البواب تحت شباكي رافعًا رأسه فبدا قزمًا خفيف الظل، وبدا أيضًا أنه يعرف ما الذي سأقوله. أشرت إلى الدكان والسيارات والبلطجي قائلًا بصوت عال:

- «إيه دا بقى؟! يطلع مين دا بسلامته؟!».

رمقني البلطجي بنظرة محايدة لا تعبر عن أي شيء، ولم يعلق، ولكن الشتائم المقذعة التي يوجهها لصبيانه ضوعفت بالكمية التي كان يريد أن يوجهها لي. جاءني البواب عند البلكونة. وكان البلطجي فوق الرصيف المرتفع يرانا ويرى كل محتويات البلكونة كأنه جالس معنا، يسمعنا ونسمعه حتى في الهمس.

ومن المؤكد أنه سمع البواب وهو يحكي لي كيف أن هذا الأسطى من حي قريب للضاحية وأنه معرفة الكوافير الذي أجر له هذا الدكان، وهو يعلم أنه سيفتحه ورشة ميكانيكا سيارات. قال أيضًا إن الضابط الذي يسكن فوق شقتي، وضابط المرور الذي يسكن فوقه ومهندس السنترال الذي بجواره، كلهم شاهدوا افتتاح الورشة مساء أمس وبرطموا وزمجروا وسألوا عني للتشاور فلم يجدوني وأنهم يطلبون الاجتماع بي اليوم. قلت للبواب:

- «وعلى إيه اجتماع! ناولني التليفون».

وأمسكت بالهاتف لأبلغ رئيس الحي عن هذا الاستيلاء، وبالمرة أبلغ شرطة المرافق عن وجود ورشة ميكانيكا وسط مساكن جديدة يمنع القانون افتتاح ورش فيها. ما إن سمعت جرس الهاتف يرن في مكتب رئيس الحي حتى راجعت نفسي قائلًا لها: مَن الأفضل أن أنتظر حتى أتفاهم مع زملائي السكان لعل بينهم من يستطيع حسم الأمر بسلطته.

في المساء انتظرت أن يطرق أحدهم بابي لإقامة الاجتماع المزعوم، غير أن أحدًا منهم لم يفعل. تذكرت أن ثمانين في المائة من سكان العمارة قد اجتمعوا في شقتي قبل عام مضى واستدرجوني - باعتباري أكبرهم سنًّا - لقبول رئاسة اتحاد الملاك فلم أقبل ولم أرفض، لكنهم اعتبروا صمتي نوعًا من القبول الخجل. رأيت الآن أنني يجب أن أقوم بمهمة رئيس اتحاد الملاك. اتصلت بهم واحدًا واحدًا، جميعهم أبدى استنكاره ورفضه لوجود ورشة ميكانيكا في أحشاء سكنهم، وطالبوني بالتصرف

نيابة عنهم حتى لو استدعى الأمر لرفع قضية في المحكمة. قررت أن أفعل، طلبت رئيس الحي على الهاتف، في نفس اللحظة لمحت أحد سكان عمارتنا المتحمسين للشكوى يقف بسيارته أمام الورشة والولد البلطجي يجري فيها بعض الإصلاحات. أغلقت الهاتف غاضبًا ووقفت أتفرج على هذه المفارقة المزعجة. بعد برهة لمحت الساكن نفسه يلاطف البلطجي، يشكره على ضبطه لمحرك سيارته و.. تسلم إيديك. شيعه البلطجي بالتحية الحارة مؤكدًا أنه دائمًا في الخدمة وتحت الأمر.

بسبب هذا السلوك المريب، وإدانة له، لم أتخذ أي موقف لأسابيع طويلة. وفي مساء أحد الأيام هاتفني الساكن نفسه قائلًا:

- «عملت إيه؟ الولد دا لازم يمشي من هنا! حيقرفنا في عيشتنا وحنشم العادم بتاعه لحد ما نتخنق وعيالنا تعيا!».

اندهشت. قلت له بشيء من الغلظة إنني لم أفعل شيئًا ولن أفعل، وأغلقت الهاتف دون استئذان. فإذا به بعد حوالي ساعتين يطرق بابي ومعه عدد كبير من السكان. وفيما أدعوهم للدخول بادرني هو قائلًا:

- «حضرتك تصورت إني بقيت صاحبه عشان شفته بيظبط لي الموتور؟.. لأ.. داهو اللي أصر.. أقنعني أن الموتور فيه حاجة مش طبيعية.. سبته يتصرف.. لكن دا شيء ودا شيء.. لازم يمشي من هنا بأي شكل!.. وآدي السكان أهم كلهم موافقين!».

أيده الجميع. تطوع أحدهم فقدم لي أرقامًا سرية لهواتف رئيس الحي والمحافظ وسكرتير عام المحافظة ورئيس مباحث شرطة المرافق. زودني آخر بعدة أسماء لناس مهمين يمكنهم مساعدتي. لكن ما إن خرجوا من عندي حتى هبط حماسي فجأة؛ ربما لإحساسي بأنهم استراحوا لتوريطي وحدي في المواجهة وبقوا هم في الظل على علاقة طيبة مع الميكانيكي ليقولوا له عند الحاجة إليه: إن هذا الصحفي المزهو بمركزه هو الذي افترى عليك بدون علمنا. قلت لنفسي مبررًا تقاعسي: ان التأني واجب حتى أتأكد من موقفهم الحقيقي.

مرت أسابيع كثيرة دون أن أفعل شيئًا، مع أن منظر الورشة بسياراتها وضجيجها وعوادمها كان يجثم على صدري يزهق أنفاسي.

خلال هذه الأسابيع لم يتصل بي أحد من السكان ليسألني ماذا فعلت، في الوقت نفسه لم يتصل به أحد، بل علمت أن بعضهم كان يذهب إلى ورش بعيدة لإصلاح سيارته.

السر في ذلك ما لبث حتى ظهر ذات عصرية؛ إذ انتبهت إلى خناقة حامية أمام الورشة فأعطيتها كامل انتباهي، فتبين لي أن هذا الميكانيكي تسبب بجهله وغشوميته في إفساد طاقم شنبر جديد. في يوم آخر انتبهت على خناقة أخرى، لقد أفسد الدبرياج. أصبح من المألوف أن يلتقيني البقال أو الفاكهي أو صاحب المكتبة فيبادرني قائلًا:

- «على فكرة الواد الميكانيكي اللي قدامكم ده حمار ما

بيفهمش أي حاجة في الميكانيكا.. إوعى تخليه يمد إيده في عربيتك!».

هو إذًا سيئ السمعة من قبل أن نراه. مع ذلك فالسيارات لا تكف عن المجيء إليه؛ ذلك أنه أقرب ميكانيكي للطريق السريع الذي تحدث فيه أعطال كثيرة. في الوقت نفسه تبين لي أنني المتضرر الوحيد من وجود الورشة لأنها تكاد تكون في قلب شقتي بدون أدنى مبالغة، وعجبت غاية العجب من أصحاب الشقق الملاصقة للورشة كيف لم يقلقهم الدخان الأسود الذي تصبه في غرف نومهم ليل نهار؟!

وهكذا استيقظ غضبي وقررت أن أحارب هذه الورشة بدون هوادة. أمسكت بالهاتف، طلبت شرطة المرافق متوقعًا أن أجد جميع أرقامها مشغولة، لكن لدهشتي رن الجرس من أول محاولة. شعرت بارتباك مفاجئ، بدا لي أن شرح الموقف أشبه بكابوس ثقيل، وأنني لن أتمكن من إثارة اهتمام أي مسؤول ما لم أذهب له بنفسي؛ فالمقابلة الشخصية لها لا شك أثرها الفعال. فاضلت بين الذهاب بدون موعد سابق والاتصال لتحديد موعد، واخترت الاقتحام لوضع المسؤول أمام الأمر الواقع.

غير أنني لم أذهب لسبب لست أدريه على وجه الدقة؛ ربما لازدحام الوقت بالعمل، ربما لفقدان الحماسة. في هذه الأثناء لاحظت أن الميكانيكي البلطجي بدأ يزحف بسياراته إلى ما تحت بلكونتي مباشرة ليركنها في انتظار دورها أو يترك صبيانه يعيشون فيها، فأقف في البلكونة وأنادي عليه في صلف وغطرسة وخشونة:

- «إنت يا جدع انت... شيل العربيات دي من هنا بدال ما أنزل أولع لك فيها.. فاهم ولا لأ؟.. تجرمه مش عايز!».

ففي الحال، ودون أن يفتح فمه، يسحب السيارات إلى بعيد جدًّا. ويتصادف أن أكون خارجًا أو عائدًا بسيارتي، فأفاجأ بأن سياراته تسد الشارع تمامًا ولا بد من أن يستغرق وقتًا في سحب سيارة بعد أخرى واستعدالها في أماكنها ليوسع لي برزخًا أمر منه. هنا يصل غضبي إلى ذروته، فلما أكاد أزرُق من برزخ الخطر وأتأكد من أنني لم أحتك بسيارة أو رصيف، حتى أفتح الباب وأنزل، أفرش ملاءة الردح بأعلى صوتي، أشيع له أقذع الشتائم، أنذره بأن البلطجة ستورده موارد التهلكة، وبأنني سأسجنه بإذن الله إن عاجلًا أو آجلًا. أصعد إلى شقتي، أمسك بالهاتف، أطلب المرافق، ما يكاد الجرس يرن حتى أراني قد وضعت السماعة ودخلت لأخلع ثيابي على زعم أن أتكلم بعد أن أتغدى وأهدأ. يدخل الليل فأنسى الأمر تمامًا، أظل حتى منتصف الليل في البلكونة أراه في ضوء عمود النيون المعلق تحت لافتته جالسًا على الرصيف المرتفع يدخن الشيشة ويوجه صبيانه، ويراني بكامل هيئتي في ضوء الأباجورة جالسًا أقرأ أو أكتب.

العجيب أنني بدأت آلف النيون في مواجهتي وآخذ حس الورشة وأعتاد أشباح الصبيان والصنايعية وهم يتقافزون بين السيارات ويضيفون - أثناء نقاشهم - إلى معلوماتي معلومات جديدة لم أكن أعرفها عن الدينامو والدبرياج، وآلات الجر وما إلى ذلك.

على أن الأعجب من كل ذلك أنني دعيت ذات مساء لحفل عشاء في بيت أحد أصدقائي بمناسبة عيد ميلاده، فإذا بالصديق يقدم لي رئيس الحي شخصيًّا، ويقدمني له، فإذا برئيس الحي يعرفني ويستقبلني بحرارة ويقضي السهرة كلها بجواري في مرح وسمر، لكنني في النهاية انصرفت دون أن أفاتحه في الأمر الذي سعيت لمقابلته من أجله. كيف حدث هذا؟ هل تناسيت؟ استنكفت؟ استهيفت؟ استعليت؟ أيا كان السبب فقد عللت نكوصي بأنني اكتفيت بمعرفة الرجل حتى إذا ما طلبته بعد ذلك يستجيب، وإذا ما حدثته في الأمر يتخذ موقفًا حاسمًا لصالحي.

إلا أنني لم أكلمه بعد ذلك مطلقًا. كنت كلما انفجرت في الزعيق للميكانيكي بسبب احتلاله للشارع كله ينتهي زعيقي - كالمعتاد - بالتهديد والوعيد.

أما عند الشروع في التنفيذ فيصيبني التردد فالنكوص؛ حتى لقد شعرت بالحيرة ثم الثورة على نفسي بسبب هذا التخاذل الزري الغامض، أروح أسائلها: هل أنا ضعيف أمام هذا الولد البلطجي؟ وعلام الضعف؟ على العكس إن باستطاعتي أن ألحق به بالغ الضرر إذا أخذت الموضوع بجدية فلماذا لا أفعل؟! ما الذي يبعدني دائمًا كلما شرعت في التنفيذ؟! أيكون هذا الولد قد أجرى لي عملًا سحريًا يكبلني ويمنعني من الإضرار به؟! أم هل تراني أدخره لوقت تحتاجه فيه سيارتي القديمة؟! على العكس أيضًا فإنني أرفض أن يعبث بسيارتي لأني متأكد من جهله التام في الميكانيكا والكهرباء. هل النكوص لأنني متسامح بطبعي؟ إني بالفعل قد أكون هكذا ولكن كيف أتسامح في أمر يقض مضجعي

ويقلقني ويدمر صحتي؟.. لا.. لا.. لن أتسامح مطلقًا، على الأقل لأثبت لنفسي أنني رجل جدير باحترام نفسه.

أشرقت في ذهني فكرة ظننت أنها تريحني وتحفظ لي كياني ومظهري، سوف أكتب كلمة حادة - ألست صحفيًّا؟ - لأنشرها في أي جرنان، أندد فيها بهذه الفوضى وأدعو المسؤولين للتدخل لممارسة واجباتهم. إلا أن الغضب والانفعال وضعاني في حالة غير صالحة لكتابة مثل هذه الكلمة؛ فأجلت كتابتها إلى لحظة أكون فيها هادئًا رائقًا. إلا أن هذه اللحظة المرجوة لم تأت أبدًا، فالقلم الذي اعتاد الكتابة في مسائل كبيرة وعواطف إنسانية عميقة يصعب عليه كتابة شكوى شخصية وإلا ما فشلت كل المحاولات التي جربتها لكتابة هذه الشكوى.

صباح ذات يوم ركبت سيارتي لألحق بموعد مهم. كنت متعجلًا مكروبًا. أدرت مفتاح المحرك. لم تنطق السيارة، ليس ثمة من كهرباء. تعكر دمي وتشاءمت؛ فأنا الذي اعتدت ركوب الفولكس واجن الخنفساء طول عمري لم أتواءم بعد مع المازدا التي لم أعرف بعد شيئًا في تركيب محركها لأنني اشتريتها حديثًا من أحد ضباط الجيش. اغتظت جدًّا لمجرد شعوري بأنني أحتاج لهذا الميكانيكي الذي لا أريد أن أقيم معه أية علاقة بالمرة، نزلت، رفعت غطاء المحرك، نظرت في متاهته يائسًا، حركت كابلات الطارية وضربت فوقها بيد المفك. ثم ركبت وأدرت المفتاح فأضاءت اللمبات أمامي ولكن لا صوت؛ فعرفت أن العيب في المارش، فأين مكانه يا ترى؟ هذا ما لم أحاول معرفته، فلقد أزف الموعد ولا بد من ترك السيارة والذهاب فى عربة أجرة،

أنزلت غطاء المحرك، أغلقت باب السيارة استعدادًا للانصراف. ما دريت إلا والميكانيكي يقف أمامي بكرشه وجسده الملآن:

- «فيه إيه يا بيه؟ ما لها العربية؟».

ببوز ملوي ووجه مكشر أجبته بأن المارش فيه شيء ما فيما يبدو لي. قال: «اركب». ركبت. قال: «افتح الكبوت». فتحت. انحنى فوق المحرك وعبث بيده في بعض الأسلاك. قال «كابل المارش سايب»، وبأطراف أصابعه قام بتوصيل فيشة الكابل وثبتها بالضغط عليها، قال: «دوّر». أدرت المفتاح؛ نطقت السيارة. جذب غطاء المحرك وأغلقه، وجاء، وقف بجواري مستندًا على الباب الذي لم أكن قد أغلقته بعد. ابتسم. لأول مرة ألاحظ أن وجهه طفولي خجول. بدا كابني حين يكلمني في شيء يخصه. بدا أن خفق دمه خلف البشرة مألوف لي. قال بود وعشم:

- «حضرتك يا بيه في الصحافة؟».

- «أيوه أنا صحفي».

- «حضرتك ما تعرفش واحد كان بيشتغل في الصحافة زمان بتاع صور.. اسمه يوسف باسيلي؟».

ثبت نظرتي عليه وقد ألجمتني المفاجأة. كدت أقول له إنني رأيته بعيني يمر من ها هنا منذ بضعة أشهر رغم يقيني بأنه مات منذ أكثر من عشر سنوات، وشعرت بأنني قد أصبح صديقًا لهذا الولد لما أنه يعرف زميل عمري يوسف باسيلي الذي أحببته بعمق. أعاد سؤاله:

- «تعرفه يا بيه؟».

لم تكن نظرتي قد غادرت وجهه بعد، فسألته:

- «تعرفه أنت؟».

من جيب البنطلون الخلفي سحب بطاقته الشخصية وقدمها لي في فرح شديد:

- «أبويا يا سعادة البيه.. أنا اسمي شريف يوسف باسيلي!!».

وارتعشت يدي على عجلة القيادة. نزلت. سلمت عليه في حرارة، وقد انتابني ضحك هستيري، أغلب الظن لكي أصادر به رغبتي في البكاء.

تمت - صقر قريش في 1997/10/24

عمتي نَدْرِين

عمتي ندرين هي آخر من تبقى من عماتي السبع في دار الضراغمة التي اتسعت على مدى قرن من الزمان وتفرعت أصبحت دورًا عديدة تفصل بينها حارات وسكك ودروب ومساحات محندقة أصبحت بلدًا قائمًا بذاته حول البلدة الأصلية المسماة قفلاطون على بحر نشرت في شمال الدلتا. ورغم أن دور الضراغمة أصبحت بلدًا كاملًا من منتصف هذا القرن تقريبًا فإنها لا تزال تشي - من مجرد النظر الخارجي - بأنها دار واحدة تسكنها عائلة واحدة وإن تعددت فيها الألقاب والأسماء الكبيرة التي ينتمي إلى كل منها رهط من الرجال والنساء.

وإذا كانت العائلة قد تم تفتيت اسمها إلى أسماء كثيرة وبيوت أكثر بحكم ازدياد النسل واتساع الأرض لديهم، فإن عمتي ندرين كانت بمثابة الخيط المتين الذي ربط كل هذه الدور ببعضها وكل هذه الأسماء في حلقة واحدة. فعمتي ندرين تبلغ من العمر قرابة قرن وثلث القرن من الزمان على أقل تقدير، نبتت لها أسنان جديدة تقرش عليها الزلط، ولديها ولع بأكل العيش المحمص مع الجبن القديم والسريس والبصل الأخضر، وتحبس

بزردة الشاي وحجر الجوزة كأعتى الرجال. وليس في البلدة كلها دار واحدة تخلو من بنت أو حفيدة لعمتي ندرين متزوجة في هذه الدار أو تلك، وليس ثمة من دار في البلدة إلا ومنها عروس في دار عمتي ندرين لأحد أبنائها أو أحفادها الكثار. ولقد نوديت بألقاب كثيرة، منها: يا جدة، يا خالة، يا مراة خال، يا أمه، يا ستي، يا حاجة. ولما كان رهط كبير من الرجال والنساء ينادونها بلقب عمتي ندرين فإن هذا اللقب شاع وطغى على جميع الألقاب الأخرى.

كل لقاءات عمتي ندرين حافلة بالمفاجآت المذهلة حتى لأقرب الناس إليها، بل حتى للذين ينامون في حضنها من أحفاد الأحفاد. رجال كبار في السن يلتقونها صدفة في إحدى المناسبات: واجب عزاء مثلًا أو صباحية عرس أو للمباركة بعودة أحد الحجاج، وكل ما يعرفونه عنها أنها قريبتهم قرابة دم؛ ولكن بمجرد الجلوس معها يتضح للواحد منهم أنها شقيقة لجدة أبيه مع أمه، أو أنها بنت خالة سته عزيزة، أو أنها كانت متزوجة من جده العمدة الكبير أيام ثورة الأفندية، أو أن الأرض التي يزرعها الآن بين عزبة المتيني وبحر نشرت هي في الأصل أرضها.. أما إذا التقت أحد أبناء العائلة المقيمين في البنادر منذ أجيال مضت فإنها تعطيه شجرة العائلة فرعًا فرعًا وورقة ورقة، بما فيها الفروع التي اجتثت بالموت المبكر قبل نموها.

وإنه لشيء بديع حقًا أن يجد الإنسان نفسه فجأة وقد صار ورقة متدلية من فرع يدعى فلانًا امتد من فرع فلان المتزوج فلانة بنت فلان الذي كان حطابًا وزوجة تبيع الفسيخ

والسردين، وأنه في سنة كذا حدث كذا وكيت فسافر عمك فلان إلى البلد الفلانية هربًا من عمتك فلانة بسبب مشاكل الميراث مما جعل عمتك فلانة هذه تعانده وتبيع نصف فدانها لأبيك لتدخل بذرة الشقاق بين الإخوة؛ وستك جاللو، جل الخالق يعني كانت في الأصل زوجة عمك الكبير لكن عمك فلان الصغير تزوجها بعد موت أخيه فأنجب منها فلانًا وفلانة اللذين يعيشان الآن في الإسكندرية.

إدارة المحفوظات بحي القلعة في القاهرة أضيق من أن تتسع لكل ما في ذاكرة عمتي ندرين من تفاصيل وثائقية دقيقة. حكت لي مثلًا تفاصيل قائمة العفش التي دخلت بها ملك الإسكندرانية على جدي الكبير عبد العزيز ضرغام، وكيف أن عملية الانفصال بينهما ـ بعد زواج مستحيل دام عشرين عامًا بغير خلفة لعيب فيها ـ تعطلت شهورًا طويلة بسبب اختفاء ملعقة فضية مثبتة ضمن قائمة العفش، وقد أصر أهلها على تسليم الملعقة نفسها؛ مما اضطر جدي عبد العزيز ـ وكان دماغه أنشف من أدمغتهم جميعًا ـ إلى أن يأخذ ملعقة من الطاقم ويسافر بها إلى القاهرة ليصنع مثلها في إحدى ورش الفضة في خان الخليلي، وسلمها لمطلقته في مؤتمر عائلي كبير شهدته المندرة الكبيرة التي كانت مطرح هذا البيت الذي نجلس فيه الآن، وكانت مطلقته ـ اسم الله على مقامك ـ تجلس مطرحك الآن على كنبة استانبولي من أملاك العائلة لا تزال بقاياها ملقاة فوق سطح دار جدك عبد العزيز الصغير في شرقي البلد. قال جدك عبد العزيز ضرغام الكبير لمطلقته: «يا حاجة مَلَك أنا أدفع كل ممتلكاتي

لإرضاء من ليس لها نصيب في العيش معي تحت سقف واحد وظروف واحدة، فهل لك من مطلب آخر قبل أن يفسخ المأذون عقد الزواج؟».

منذ طفولتي لم أجد بين أهلي كلهم، في بلدتين متباعدتين، من يشعرني بأنني حقًا من عائلة كبيرة ذات مهابة تستحقها عن جدارة، سوى عمتي ندرين، التي تحنو عليّ بصورة خاصة فضلًا عن حنوها على كل من يمت إليها بصلة قربى بوجه عام. لهذا كنت أسافر لها من قريتنا كل إجازة لأجد عندها ما لم أجده عند أحد على الإطلاق، لدرجة أنني اعتبرت معرفتي بها مكسبًا واكتشافًا عظيمين. هي التي عرفتني بنفسها. يومها كنت ـ أنا التلميذ في السنة الأولى الابتدائية ـ ذاهبًا في الأصل لزيارة شقيقتي في قرية قفلاطون، التي كانت قد تزوجت حديثًا من أحد أبناء عمتي فريدة شقيقة عمتي ندرين الصغرى، وهما معًا تقولان لأبي: يا ابن خال. وكانت جدتي لأمي ـ المقيمة في مدينة فوة ـ قد اشترت لي طربوشًا وبنطلونًا قصيرًا وقميصًا أفرنجيًا وسترة وشرزًا من الصوف بمناسبة قبولي بالمدرسة الابتدائية.. فلبست كل ذلك أثناء زيارتي لشقيقتي. قوبلت بحفاوة بالغة من عمتي ندرين التي شملتني بحنان دافق إنساني كل شيء حتى شقيقتي؛ حيث أخذتني في حضنها كأنها كانت تبحث عني منذ قرون طويلة مضت، صارت تربت على ظهري، تملس على شعري، تنفض الغبار عن طربوشي وسترتي وحذائي مهمهمة بصوت كمواء القطط:

ـ «مصمص له يرجع لأصله!».

ردت عمتي فريدة ـ حماة أختي ـ وهي ترمقني في إعزاز:

ـ «ما هو على أصله من زمان يا أختي!».

وشرحت لي أختي معنى العبارة وهي تفطرني بالقشدة واللبن الرايب والبيض المقلي في السمن. فهمت من شرحها أن البدلة التي أرتديها ذكرت عمتي ندرين بأيام العز حين كان جدي وأعمامي الموظفون في الحكومة يزورون أهلهم في قفلاطون متقمطين بالبدل والطرابيش ويركبون الكارتات والحناطير، وهو منظر اختفى تقريبًا بعد رحيل أعمامي الأفندية وتقاعُد أبي في البلدة مكتفيًا بالجلباب والعباءة والطاقية.

منذ تعرفت على عمتي ندرين أصبحت أعرف الكثير والكثير عن عائلتي المعمرة في بلدتين. بل إنني ـ ويا للعجب ـ لم أكن عرفت شيئًا عن أبي نفسه إلى أن حكت لي تاريخه من طقطق لسلامو عليكم، بجميع زيجاته الفاشلة والوظائف التي شغلها وخلافاته مع أولاد أعمامي حول الميراث وكيف انتهت، بل وكيف صرف أبي كل مدخراته من الميراث على عضوه الذي حيره طول عمره بين أشكال وألوان من النسوان البندريات، وكيف أن الله أكرمه بأمي الصغيرة لتنجب له الأولاد الكثار، جاءته خلفة الذكور التي بحث عنها طويلًا بين زيجاته ولكن بعد أن نفدت الثروة وضاعت الأرض التي كانوا سيفلحونها.

أحببت عمتي ندرين، باتت في نظري هي شجرة العائلة التي لم أكن أعرف عنها شيئًا يذكر، ما إن أراها حتى ينبعث في داخلي شعور قوي بالعزة والعزوة، وأستشعر هيبة رجال تهتز

لهم أركان الدنيا ويهرب الفقر والكساد فارًّا من أمامهم أينما ذهبوا ليحل الخير ويعم الدفء وتنحل جميع المشاكل بكلمة واحدة من أحدهم. كانت نظرتي إلى ذلك رمزًا للحب وللحنان تسبغه على مساحات عريضة جدًّا من البيوت والناس والحيوان وتناغي به الشمس والقمر والمطر في أغنيات يقشعر البدن من كلماتها وأنغامها الفطرية، تملس على جسد المحسود ممسكة بورقة وهي ترقيه بتعزيمة ترتعب عين الحسود من كلماتها فتفر منسلتة من جسد المحسود تغادره إلى غير رجعة مخلفة في حلق عمتي ندرين تثاؤبًا قويًا تطلق منه عواءً رهيبًا.

كل الناس تعرف وتتأكد أن عين الحسود تعمل لرقيا عمتي ندرين ألف حساب وتتردد طويلًا قبل أن تتطفل ـ بله أن تقتحم ـ على أي ولد من عيالها أو زرع من زروعها أو محصول من محاصيلها. تنخفض عين الحسود إذا مرت بجوار شيء يخص عمتي ندرين؛ بل إن الحسود يستعيذ بالله من شر عينيه إذا ضبط نفسه متلبسًا بنظرة غير صافية يتضح له أنها تخص عمتي ندرين.

حدث أن تسلل ثعبان إلى برج حمامها وابتلع فرخًا سمينًا انحشر في حلقة فتسمر في مكانه دائخًا زورانًا عاجزًا عن التنفس والحركة، إلى أن أدركته عمتي ندرين فخرطته بالفأس كما تخرط الخيار الشائخ للأوز.

شاع الحادث، تجاوز بلدة قفلاطون عابرًا بحر نشرت ومصرف نمرة تسعة وترعة السلمونية وحصة الغنيمي وعزبة

الطوال ووصل إلى دارنا في البلد؛ فضحك أبي وقال إنه لا شك ثعبان غشيم والمؤكد أنه غريب عن البلد والغريب أعمى ولو كان بصيرًا. إلا أن البلدان المجاورة كلها أكدت أن تعزيمة عمتي ندرين التي ترقي بها الحمام صبح مساء كان سرها باتعًا فخدر أوصال الثعبان لينتهي أجله على يديها.

حدث كذلك أن مر الحاج بيومي المزين على ساقية عمتي ندرين وهي دائرة، حانت منه التفاتة إلى الثور المعلق في الساقية فأبدى ـ بينه وبين نفسه ـ استحسانه له وقرر في الحال أن يجيء ببقرته من غد إلى هذا الثور العفي ليعشرها لعلها تنجب ثورًا مثله. ولكن شيئًا من اللهيب سرى في ساقيه وجنبيه كاد يشعل فيه النار، فتلفت حواليه لعله يستكشف حريقًا مجاورًا فيسعى لإطفائه، فما رأى سوى عمتي ندرين مقعية تحت شجرة التوت تشخلل بيد الفرقلة لتنذر الثور بأنها قائمة على رقابته حتى لا يتراخى ولا يمكر. كاد الحاج بيومي يقع من طوله، دفن رأسه بين كتفيه مغمغمًا: يا سابل الستر استر يا رب، ومضى مسرعًا كالهارب بسريقة، لكنه لم يكد يمضي خطوتين حتى تعثر الثور وانكفأ على بوزه، فإذا بعمتي ندرين تنتفض قائمة كالفهد فاردة ذراعيها تتلقى رقبة الثور قبل أن تجيء تحت، تمكنت من رفع ساقيه الأماميتين أقالته من عثرته بكفاءة تحسد عليها. ولم تكن قد لاحظت الحاج بيومي أو شعرت به، لكنها ما كادت تتحسس ركبتي الثور حتى فوجئت بالحاج بيومي يهرول نحوها وينكب على يديها لثمًا وتقبيلًا مرددًا في ارتعاد:

ـ «سامحيني يا حاجة ندرين! مكانش قصدي والله العظيم.

كل ما في الأمر إني فكرت بس إني أجيب بقرتي تعشر منه! لكن أنا غلطان لك! يا ريتني ما فكرت الفكرة دي! اعملي معروف أنا في عرضك ما تزعليش مني! سامحيني! المسامح كريم!!».

حينئذ فحسب أيقنت أنه نشّ الثور عينا، فدفعته بقبضتها في صدره بقوة صائحة في وجهه بنبرة رهيبة:

ـ «النهارده الخميس! خمسه وخميسه! يا عين يا بصاصه تندب فيكي رصاصه! يا عين يا لئيمه تتخزقي بالبريمه! يا عين يا مفنجله تتخلعي بالمنجله! يا عين يا متقنطرة تتخشي بالشرشرة! رقيتك يا شاب من كل من هب ودب! ومن عين كل اللي شافوك ونضروك ولا صلوش على الحبيب النبي!!».

يومها عاد الحاج بيومي المزين إلى داره يجر ركبه من فرط الإعياء والهزال كأن وطواطًا مصّ جميع دمه فتركه كمصاصة القصب المتهدلة الباردة. رقد على الفراش يجضّ ويوحوح عاجزًا عن الكلام المفهوم والحركة، يتعنّى دمًا، وبعد شهر من العذاب الأليم توكل على الله ومات دون أن يعرف له الحكيم طبًّا ولا دواءً.

ليس هذا هو جانب القسوة الوحيد في عمتي ندرين، إنما هناك جانب تتحول فيه إلى حريق من القسوة لا يحتملها بشر. ذلك هو ما يختص بالتقصير في أداء الواجب. إن من يقصر في أداء الواجب يا ويله يا سواد ليله من عمتي ندرين، كل ما فيها من حنان يفور دفعة واحدة ويتبخر، تصير قيظًا منصهرًا ينصب على دماغ المقصر فيسلخ جلده وقد يزهق روحه.

حدث أن كنت في زيارة لها في إحدى الإجازات الصيفية مزهوًا بنجاحي وانتقالي إلى السنة الثالثة الابتدائية، فإذا بها تكاد لا تلحظ وجودي؛ حيث كانت تتحدث لمن حولها في غضب عارم، تهدد وتتوعد. كانت شخصية مختلفة عن التي ألفتها، لحظتها فحسب انتبهت إلى أن وجهها أشبه بالحصير البالي: أعواد متعرجة ملتحمة ببعضها بخيوط واهية مترهلة، طويلة الصدغين مسحوبة الفكين رهيفة الشفتين واسعة العينين بحول خفيف الوطء، في نظرتها حدة، في لسانها خشونة كالمبرد، نحيفة البدن صلبة العظام جارمة الأطراف طويلة القامة على عكس عمتي فريدة الممتلئة البيضاء الميالة إلى القصر.

سألت عمتي فريدة عن السبب الذي يغضب عمتي ندرين كل هذا الغضب. قالت لي إن طفلًا من أولاد أخيها الكثار قد غرق في العام الماضي في بحر نشرت وهو يستحم مع رفاقه حيث جرفته مياه الفيضان، انتهى أمره منذ عام كامل. قلت في دهشة: واليوم تذكرته عمتي ندرين فغضبت؟ إذن فمن هي تلك التي تهددها؟!.

قالت عمتي فريدة وهي تعتقل ابتسامة حزينة مشاكسة:

- «أصل الحكاية أن الحاج عبده زوج مسعودة بنت خالتنا مات اليوم!».

- «ولكن عمتي ندرين تهدد من الآن؟!».

- «مسعودة بنت خالتنا!!.

- «ما ذنبها؟!».

- يا ولدي! الموضوع وما فيه أن مسعودة بنت خالتنا لم تجيء تعزينا في ابن أخينا الذي غرق في العام الماضي!».

- «يا.. ا.. ا..ه! تشيل الزعل عامًا كاملًا؟».

- «موت الحاج عبده فكَّرها"».

نظرت إلى عمتي ندرين في دهشة. كانت لا تزال تدمدم:

- «حاورّيها! حاعلمها الحزن معناته إيه! حانتقم منها المره اللي ما بتستحيش دي! إن ما ورّيتك يا مسعودة يا بنت هنية العجرية ما ابقاش ندرين الضرغام! هاتي يا بنت الملس والجلابية السودة والشكربين"».

هكذا نادت على أختي فقالت عمتي فريدة:

- «خلاص بقى يا ندرين يا اختي مالوش لزوم! اخزي الشيطان اعملي معروف!».

صرخت عمتي ندرين في أختي:

- «هاتي الملس يا بت!».

أتتها أختي بما طلبت. لبست هدومها على عجل. هبطت السلم الطيني في حذر وحرص. اشتعل خيالي. شغفت بمعرفة كيف ستنتقم عمتي ندرين من بنت خالتها مسعودة التي مات زوجها اليوم؟! وهل يصح أن تنتقم من بنت خالتها يوم موت زوجها؟! لماذا لا تؤجل ذلك ليوم آخر؟!..

منفلتًا من أيدي شقيقتي وعمتي فريدة نزلت مسرعًا. لحقت

بي شقيقتي على الباب، همست في أذني بنبرة تحمل معنى الفجيعة:

- «ارجع يا مجنون! حتروح فين؟!».

- «أتفرج على عمتي ندرين!».

- «بلاش! طاوعني أصل خالتك مسعودة مش مخلفه صبيان! كل خلفتها بنات! ولو أنت ظهرت قدامها في ساعة زي دي حتفكرها بالصبيان اللي اتحرمت منهم! حتنقهر!».

ضحكت ساخرًا من هذا المنطق البدائي الساذج، لكنني جاملت أختي قائلًا إنني سأتفرج من بعيد لأرى كيف تنتقم عمتي ندرين من خالتي مسعودة رغم المحنة التي هي فيها، بلعت أختي ريقها:

- «إنت فاكرها حتتعارك؟ لا يا عبيط!».

جريت وراء عمتي ندرين. دخلت وراءها دار خالتي مسعودة. كان الحزن مخيمًا على الدار، وبعض رجال العائلة مقعين في حزن وصمت تحت شباك الدار في الشارع في انتظار لحظة الدفن بعد صلاة العصر.

تربعت عمتي ندرين في حوش الدار. جاءت خالتي مسعودة وبناتها بثيابهن السوداء وتربعن بجوارها ورحن يمسحن الدموع في صمت..

- «البقية في حياتك يا مسعودة!».

- «ما نجلكيش في وحش يا اختي! الله جاب الله خد عليه العوض! حنعمل إيه؟! إيه اللي حنعمله؟!».

رأيت العفاريت تتنطط على وجه عمتي ندرين وهي ترمقهن بنظرات نارية تطق الشرر فيلمع في ضوئه خبث شديد ثم خلعت طرحتها وراحت تلوح بها في الهواء على إيقاع العدودة الفاجع:

- «عزى المعزى وكَسَّر الجره!

مفيش ولد ياخد العزا بره!».

بمجرد ذكر الولد هاجت شجون خالتي مسعودة في الحال، تذكرت حرمانها من خلفة الصبيان، وتمنت - لا شك طبعًا - أن لو كان لها ولد يستقبل المعزين في أبيه، فإذا بهذه المرأة التي كانت منذ برهة وجيزة تتقبل أمر الله بحكمة وهدوء وقوة أعصاب، قد شبت النار فيها، فأطلقت صرخة ملتاعة، جاوبتها صرخات البنات. وانبرت عمتي ندرين بفجيعة حريفة متقنة:

- «ندامه على اللي راح ما خلّف!

شبه الحمام لا باض ولا لّف!».

فاندلع الصوات بصراخ أكثر حدة. وواصلت عمتي ندرين:

- «قليل الولد ع المغسله قلُّوه!

حسه انقطع من ساعتن ودوه!

قليل الولد ع المغسله اتدلى!

حسه انقطع من ساعتِن ولى!»

تمدد الصوات الصارخ، جاء من قاع الحسرة والقهر يضرب الرؤوس يشرخها. وعمتي ندرين تصب النفط على اللهب:

- «قليل الولد قال مين يعززك يا راس؟

يا ترى ولادي ولّا ولاد الناس؟!

قليل الولد قال مين يعززك يا عين؟

يا ترى ولادي ولّا ولاد الغير؟!»

واشتعل الحريق، صارت خالتي مسعودة وبناتها يلطمن وجوههن بحرقة، يلطخن وجوههن وشعورهن بروث الماشية، يعضضن أيديهن، يخربشن بشرات وجوههن بأظافرهن. ركبهن الجنون، أنا الآخر انتقلت إلى العدوى فصرت أبكي وأصرخ في رعب مثلهن. أما عمتي ندرين فقد لمع في عينيها شعور أنثى في لحظة اكتمال نشوتها، فأمسكتني من رسغي قائلة:

- «ما تخافش يا حبيبي تعالى أروحك!».

سحبتني ومضت، تاركة خلفها حريقًا من الحزن الجنوني المتفجر لا سبيل إلى إطفائه. العجيب أنها في الطريق كانت تمَسّي على الناس وتعافيهم بالعافية وتُسعد مساهم فيما هي تبتسم بوجه رائق كأن شيئًا لم يكن.

المعادي - صقر قريش -
فجر الأحد 18 يوليو سنة 1999

مجاذيبُ قطة

منذ أن تاب الحاج أحمد سعيد الصعيدي عن شغل «الخطيف» وقطع الطريق ليلًا على خلق الله كانت توبته نصوحًا بحق، لقد تاب بأثر رجعي بات يكفر عن ذنوب سابقة، يؤدي الفروض الخمسة في أوقاتها بدقة، ثم إنه حج إلى بيت الله بصحبة زوجه، وأصبح مضرب المثل في حي قايتباي والدراسة ومنشية ناصر على الأمانة والتقى والورع. حين يستمع إلى القرآن الكريم ـ المرتل أو المعنى أو المقروء في خطبة الجمعة ودرس العصر ـ تدهمه الآيات التي لم تكن تطرق باب قلبه من قبل فإذا هو يقشعر وينتفض كالمقروص في موضع موجع حتى ليظن من يجاوره في القعدة أن سقفًا وقع عليه أو ثعبانًا قرصه لولا أنه يتبع انتفاضته بكلمة «حق! اللّهم غفرانك!»، وقد تنهمر الدموع من عينيه بغزارة، وقد تظل تترقرق في المآقي لوقت طويل.

ورغم أنه مشغول من صبيحة ربنا إلى قرب صلاة العشاء بفرشه في سوق الخضار يناكفه الزبائن ويساومونه على الملاليم التي يكتفي بها كمكسب جزاء عرقه في شراء البضاعة وبيعها،

فإنه أول من يدلف إلى عتبة جامع قايتباي قبل مجيء المؤذن نفسه، حتى خادم الجامع الذي يناط به فتحه عند الصلاة وإغلاقه عقبها مباشرة اعتاد أن يراه قاعدًا في انتظاره على أحد صدغي الباب ذي الدرج الرخامي المهيب.

هذا في الأيام العادية أما في شهر رمضان فإنه يأتي قبل آذان المغرب بنصف ساعة على الأقل وفي سيالته حفنة من التمر يوزعها على من يلتقيه لحظة الأذان، حتى إذا ما انتهى من تناول الفطور مع زوجه وعياله غادر الطبلية ممسكًا بكوبة الشاي يشربه واقفًا على عجل ليلحق بصلاة التراويح من أولها.

فترات انتظاره على باب الجامع هي السبب في قيام هذه العلاقة الحميمة بينه وبين هذه القطة المتعبدة مثله بل لعلها أشد منه ورعًا وتقى. طول عمره لم يكن يحب القطط ولا يطيقها في بيته إذ إنها في نظره خسيسة غدارة، وعلى رأي المثل الشائع: تأكل وتنكر، وليس عندها مثقال ذرة من وفاء الكلاب وارتباطها بأصحابها والدفاع عنهم وقت اللزوم، القطة لا تتورع عن خربشتك حتى وأنت تقدم لها الطعام بيديك، لا ترعى للبيت حرمة، تخطف - بل رحمة - الدجاجات المحمرة وتولي هاربة، تعتدي على أي طعام تصادفه في طريقها وتقفز وتمزق الملاءات وأوشاش المخدات والكراسي، تتراخى - مع ذلك - في صيد الفئران.

إلا أن الحاج أحمد سعيد برغم ذلك يخشى بأس القطط فلا يقسو عليها مهما فعلت؛ ربما ليقينه من صدق ما سمعه من

أحد المشايخ من أن أرواح الموتى حين تغادر أجساد موتاها تنطلق حائرة فتتلبس أية قطة أو أي مخلوق يصادفها، وعلى هذا فمن المحتمل أن تكون هذه الروح روح بني آدم تقي عارف بالله.

كثيرًا ما كان يحنو على بعض القطط الضالة حين يراها تتسلل إلى بيته وتقعي في مواجهته في ثقة وثبات كإمبراطور مهاب منجعصة برقبتها إلى الوراء تروح تنقل نظرتها في عظمة ووجل وترقب، وحينما يعطيها الأمان تغمض عينيها وتهرُّ في صوت خفيض رتيب كان يفسره بأنه لا بد من أن يكون تسبيحًا بحمد الله. وكان يصرخ في ولده في فزع إذا همَّ أحدهم بقذفها بفردة الشبشب أو ضربها بالعصا جزاء حركة خسيسة فعلتها، وينبه دائمًا إلى أن الملائكة تدافع عن القطط، وأي عدوان على أي قط لا بد من أن يعاقب الإنسان عليه في الحال عقابًا رادعًا قاسيًا؛ فالسلوك الأمثل إذن هو أن تهوش القط بحركة ما حتى يلوذ بالهرب ويعفيك من ذنبه.

أما قطة جامع قايتباي فإنها تكفلت بتعميق العلاقة بينه وبين جميع القطط. المرجح أنها ـ كما أفتى الأستاذ حمدي الشامي الموظف بمصلحة تحقيق الشخصية وأحد زبائن مقهى إبراهيم الغول المواجه للجامع ـ لم تكن مصرية؛ يعني ليست من القطط الصايعة؛ فالقطط المصرية ليست بهذا الجمال الساحر: الخطوط، والألوان، والعينين الخضراوين، ولا بهذه النظافة، هذه الوداعة، هذه العفة، هذا الاحترام للنفس، هذه الجاذبية التي تدفعك لاحتضانها وتقبيلها وتمرير اليد على فروتها الناعمة، هذه الشخصية القوية إلى حد أنها لا تفزع من أحد ولا تنط ولا

تصاحب القطط الضالة بل تترفع عليها وتنظر لها بأنفة وتأمل حكيم، لا، إنها لا بد من أن تكون قطة سيامية أو رومية أو من جنس أرقى والسلام؛ يعني بنت ناس متربية على الغالي، ولا بد من أنها تاهت من أسرة كريمة، نزلت من السيارة مثلًا أو غافلت طفلًا يصاحبها من العائلة وتجولت فشردت فتاهت فأبقت على احترامها لنفسها، لم يغادرها تحضرها، ظلت على سلوكها المطبوع تنتظر الأكل حتى يقدم لها وإلا فإنها لا تسأل عنه مطلقًا، وحين تشعر بالرغبة في قضاء حاجتها تذهب إلى المكان الطبيعي، إلى دورة المياه تترك فضلاتها الضئيلة الجافة في فتحة المرحاض كأي كائن متحضر عاقل، فإن لم تجد المرحاض فإنها تنتحي ركنًا بعيدًا خفيًا، وإذ تنتهي تقوم بردم فضلاتها بالتراب، تظل تشمشم حتى تطمئن لاختفاء الرائحة تمامًا.

هكذا قال الأستاذ حمدي الشامي، وأيد كلامه رواد المقهى الذين اعتادوا انتظار موعد الصلاة مع فنجان القهوة وكرسي الدخان..

لكن الحاج أحمد سعيد الصعيدي نظر إلى الأمر من زاوية أخرى، فما دام هناك جنس أرقى من جنس حتى في القطط والكلاب والحشرات وجميع المخلوقات؛ فلا بد بالتالي من أن يكون هناك قط أفضل من قط، قط متشرد جربوع وقط ابن ناس طيبين نظيف جميل مؤدب، قط دنيء وقط عفوف، قط ماكر خبيث وقط على نياته أبيض القلب، قط شرير وقط خير، قط كافر وقط مؤمن، ومن ثم فهذه القطة مؤمنة بل ودرويشة، تؤدي فروض الصلاة. وإذا كان المسلم هو من سلم الناس من أذاه فإن

هذه القطة مسلمة من شوشة رأسها إلى أظافر قدميها. الحاج أحمد متأكد من هذا إلى حد اليقين بعد مراقبة دامت شهورًا طويلة..

ما من مرة ذهب فيها لأداء الصلاة في الجامع إلا ووجدها قد سبقته وتمددت على الصدغ الثاني لبكية الباب وهو أشبه بعمود مربع مغلف بالرخام. يجلس على الصدغ المقابل يتأملها، حتى إذا ما ارتفع صوت المؤذن فوق المئذنة صائحًا: الله أكبر، تصحو كل جارحة فيها، ينتفش ريشها وتتحفز هي محركة رأسها مع انديـاح صوت المؤذن، منتبهة مطرطقة الأذنين كأنها تستوعب كل كلمة من مفردات الأذان، وتهر، كأنها تطلق الدعوات والابتهالات المصاحبة للأذان، يكاد الحاج أحمد سعيد يميز في هريرها عبارات: الله أعظم والعزة لله! يا أكرم من سئل! اللهم آت محمدًا الوسيلة والفضيلة.. إلخ.

ما أذهل الحاج أحمد وجعل فروة رأسه ترتفع تحت العمامة حتى كادت العمامة تطير في الهواء رؤيته للقطة وهي تتوضأ استعدادًا للصلاة. نعم تتوضأ، تعتدل في وضع الإقعاء، تمد يدها اليمنى إلى فمها فيخرج لسانها يلحس راحة اليد ظهرًا لبطن تاركًا عليها قدرًا من اللعاب تمسح به وجهها لعدة مرات، تتبعها باليد اليسرى فتغسل الجانب الأيسر من الوجه، ثم الرأس، فالرقبة، ثم تميل برأسها متكورة الظهر، وبلسانها تغسل المنطقة السفلية من بطنها غسلًا جيدًا مثلما يفعل المصلي عند الاستنجاء، ثم تعيد كل ذلك من جديد حوالي سبع مرات. فما إن يشرع المصلون في دخول الجامع حتى تدخل في أثرهم

بخطوات رزينة رصينة ورعة، تنضم إلى أحد الصفوف الخلفية إذا كان الجامع مزدحمًا يوم جمعة، فإذا كان عدد المصلين قليلًا فإنها تتخير رقعة محاذية للرقعة التي يضع فيها الإمام رأسه عند السجود، تميل بجذعها حين يميل، تضع رأسها على الأرض حين يسجد، تقعي على قرافيصها في هدوء وعظمة وصوت هريرها يقرأ التحيات، وحينما يلوي الإمام رأسه نحوها لينهي الصلاة بقوله: السلام عليكم، تلوي هي الأخرى رأسها ناظرة حيث نظر ثم تلويها مرة أخرى في الاتجاه الثاني.

فإذا ما انتهت الصلاة خرجت هي مع جموع المصلين واختفت في مكان لا يعرفه أحد، لا تظهر إلا قبل موعد الصلاة بدقائق معدودة حيث يفاجأ بها المصلون ممددة على صدغ الباب. فجرًا وصبحًا وظهرًا وعصرًا ومغربًا وعشاءً، لا يفوتها فرض واحد.

الذهول الذي طرأ على الحاج أحمد سعيد بعد متابعته لهذه القطة المتصوفة لفت أنظار جميع الناس في حي قايتباي مما أعطى للقطة شهرة لا يحلم بها طامع في النجومية. البعض سخر في البداية، البعض الثاني اعتبر الأمر عاديًا جدًّا، قياسًا على حقيقة أن جميع من في الأرض والسماوات من كائنات يسبح بحمده تعالى. أما أن يشترك حيوان بعينه مع الآدميين في إقامة الصلاة على الطريقة الآدمية فلا تفسير له في نظر البعض الثالث إلا أن تكون روح أحد الناس الطيبين قد تلبست هذه القطة عند مغادرتها لجسد صاحبها في صعودها إلى الملأ الأعلى، ولا بد من أن ذلك الرجل الطيب كان من أولياء الله الصالحين حتى أن

روحه استطاعت أن تضع في القطة روحًا إنسانية صرفة لدرجة أن هريرها يكاد يكون كلامًا مفهومًا لشدة تطابق الإيقاعات الصوتية بينه وبين حديث الدعاء والابتهال وقراءة القرآن الكريم.

أما الحاج أحمد سعيد فقد وقر في ذهنه أن الله اختصه بشرف اكتشاف هذه المعجزة برؤيته لواحدة من الآيات البينات التي حثنا سبحانه وتعالى على ملاحظتها كدليل واقعي ملموس على الآيات البيانية الواردة في القرآن.

حق للحاج أحمد سعيد أن يفرح بهذا الكشف الإلهي وأن يزهو بشدة وعمق إيمانه وصفاء روحه، مما جعله يواصل الليل بالنهار في تهجد وسجود وركوع وابتهالات ساحبًا خلفه رهطًا من المصلين المقتنعين بأهمية كشفه وضرورة النظر إليه بكثير من الاعتبار. أصبحوا يشاركون الحاج أحمد الاهتمام بهذه القطة ومتابعة أخبارها ووصف حركاتها وسلوكها، لدرجة أنهم جميعًا طرأت على وجوههم ملامح قططية واضحة، قصرت رقابهم حتى اندفنت بين أكتابهم عند الجلوس لقراءة التحيات، صاروا يبربشون بعيونهم ويلعقون شواربهم بل صارت قراءتهم أقرب إلى الهرير. منهم الجزار والسماك والخضري والفوال، يجيئون للقطة بأجود الأطعمة من بقايا محلاتهم، يضعونه أمامها على صدغ الباب، فإذا هي تنظر إليه وإليهم في كثير من الاستعلاء والأنفة كأنها تؤنبهم على فعلتهم وتهز بتفكيرهم المنحصر في هم البطون. تطلق بعض نونوات رقيقة أسيانة كأنها تقول لهم ارفعوا هذه القمامة من أمامي. يؤكد فهمهم لهذه النونوة أنها تتمهل قليلًا ثم يعتريها شيء من الغضب فتروح تنكش المأكولات بقدميها إلى أن تزيحها

تمامًا وتلقي بها في الأرض.. إنها إذن روح متصوف زاهد.

حتى في موتها كانت صاحبة كرامات كالأولياء الصالحين سواء بسواء. ماتت ميتة كريمة. ظهر عليها الإعياء الشديد ذات يوم، آب الإعياء إلى هزال حتى إنها لم تعد قادرة على التجول، بل إنها فقدت القدرة على الوضوء. لم تعد تدخل الجامع مع المصلين، رقدت في مكانها الأثير على صدغ الباب، ظلت راقدة إلى أن سكت تنفسها تمامًا واستراحت أعضاؤها وتخشبت. ضاعت محاولات الحاج هباء طوال أيام مرضها، حملها بين ذراعيه ولف بها على الأطباء والصيادلة فحصنوها بالأمصال والمقويات ولكن بلا جدوى. وحين تأكد الحاج أحمد من موتها بكاها بحرقة كما لم يبك من قبل. كان خارجًا من صلاة العصر بين رهط من أتباع القطة، فوقفوا حول جثمانها يتداولون. اقترح بعضهم أن يدفنوها في مكان بعيد، واقترح آخرون دفنها في المقابر وما أكثرها من حولهم، فعقب آخرون بضرورة تغسيلها وتكفينها كأي إنسان.

هنا طرأت الفكرة على دماغ الحاج أحمد، فهتف بها في جلال: سأبني لها ضريحًا خاصًا بها! هل يشاركني أحدكم تكاليف البناء؟ أومأ البعض برؤوسهم موافقين، ابتسم البعض اليخر ولاذ بالصمت. أزورّ عنهم الحاج أحمد في اشمئناط وغضب وحمل القطة بين ذراعيه واتجه بها إلى بيته. أمر ابنه الكبير بالتوجه إلى مقبرة العائلة في سفح طريق صلاح سالم وأن ينتقي مساحة مربعة من حوشهم الواسع ليفحت فيه فسقية للقطة. بمساعدة الطربي نفَّذ الولد طلب أبيه.

في الوقت نفسه أمر الحاج أحمد بتسخين المياه وتفصيل كفن من الحرير الأخضر ضحت فيه زوجته بإيشارب ثمين وارد من الحجاز، قالت عن طيب خاطر مش خسارة فيها. في طريقه إلى المقبرة استدعى أحد البنائين. تعمد أن يمر من أمام جامع قايتباي والمقهى، فانضم إليه رهط كبير من الناس، مضى الموكب مهيبًا حزينًا إلى المقبرة، كلما مر في الطريق بأحد سأل هذا في فزع: مين اللي مات يا جماعة؟ فيتلقى أكثر من رد: «القطة الشيخة تعيش أنت»، فيهتف في ورع: «إنا لله وانا إليه راجعون! والله ولقد حزنت!». وهكذا كان موكب الجنازة يكبر ويستطيل في الطريق إلى الحوش.

إن هي إلا أيام قليلة حتى قام الضريح حول الفسقية، ضريح محندق ذو قبة لها سهم يعلوه هلال، تم تغفيقه ودهنه بالزيت، أقيم له باب حديدي بمفتاح، فرشت أرضه بقطع من الأكملة القديمة لأن الحاج أحمد قرر زيارة الضريح في كل المناسبات والأيام المفترجة، بل لقد راوده خاطر سرعان ما نقله على هيئة وصية واجبة التنفيذ: أن يدفنوه بجوار القطة عند موته تحت قبة هذا الضريح، لكنه ما لبث حتى سحب وصيته بقوة مشددًا على عياله بعدم تنفيذها حيث انه استخسر الضريح في نفسه واستعاذ بالله من شر الغرور وسأل نفسه مؤنبًا: تبنى ضريحًا لنفسك يا بو حميد؟! والله إنه لعيب! لقد بنيته لواحدة من أولياء الله الصالحات وهي لا شك تستحقه ولو لم تكن تستحقه عن جدارة لما ألهمك الله ببنائه.

اعتاد زيارة الضريح يوم الخميس من كل أسبوع حيث

يستدعي بعض المشايخ الجائلين ليقرأ القرآن على روحها، وفي كل زيارة يشكر القطة لأنها عودته على زيارة موتاه ووصل ما انقطع بيه وبينهم. ولكن حدث أن اضطر للسفر إلى الصعيد والمكوث هناك شهرين. فلما عاد توجه من فوره إلى الضريح بصحبة زوجه المحملة بأقراص وفطائر لتوزيعها على أبناء السبيل. اقترب من الضريح وضع يده على الباب، نظر من الفراغات في أعلى الباب، استعاذ بالله وتفل في عبه من شدة الخضة، نادى زوجه بفزع: شوفي يا أم سعيد وتأملي. جاءت ونظرت بقلب واجف، رأت عشرات من القطط الجميلة اللطيفة كالملائكة بعيون كدوائر من البللور تعكس جميع الألوان، مقعية ومتمددة حول شاهد القبر في تطامن وهدوء. قالت أم سعيد: ما هذا يا ربي؟ كيف دخلت كل هذه القطط هنا مع أن الخروم لا تتسع لفأر صغير؟! قال الحاج أحمد: لا يهمنا كيف دخلوا فالقطط لا تعدم وسيلة للدخول إلى أي مكان! ما يدور بعقلي الآن هو أن قطتنا الطيبة كانت شيخة طريقة صوفية وهؤلاء هم أتباعها ودراويشها الذين أخذوا العهد على يديها قد اهتدوا أخيرًا إلى ضريحها فجاؤوا لإحياء ذكراها. ثم انخرط في بكاء حراق اهتز منه جسده. وفيما كانت زوجه تسحبه عائدة إلى مدفن العائلة كان دماغه مسكونًا بفكرة جديدة طارئة: كيف يمكنه التدبير لإقامة مولد سنوي لهذا القطب الكبير.

السحب السوداء

أدركني المطر وأنا واقف في محطة الأوتوبيس في ميدان التحرير تحت مظلة مبنية بالأسمنت المسلح، في مواجهتي مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل، وعلى يميني مبنى المتحف المصري الذي لم أدخله مرة واحدة في حياتي.

كانت السحب قد طرحت على المدينة خيمة من الظلام فبدا كأننا في منتصف الليل مع أن الساعة في يدي تشير إلى الخامسة بعد الظهر، وبهذا أكون قد وقفت ها هنا منذ ساعة ونصف الساعة في انتظار السيارة التي سأركبها إلى مسكني في منطقة ريفية متاخمة لحي المعادي. السحب السوداء كانت ثقيلة جدًّا على صدري فأعادتني طفلًا حزينًا في فصل المدرسة الأولية غير منتبه لشرح المعلم؛ إذ يسافر دماغي وسط المطر وهدير الرعد إلى محطة السكة الحديد التي سينزل فيها أبي من القطار ليمشي إلى بلدتنا ثمانية كيلو مترات وهو كهل في السبعين من عمره.

يقطع هذه الرحلة الصعبة يوميًّا إلى مدينة المركز لتأدية عمله الذي ابتدعه لنفسه؛ حيث ينوب عن أهل بلدتنا في توفيق

أوضاعهم وقضاياهم لدى الجهات الحكومية المتعددة لقاء أجر زهيد.

هذه الرحلة اليومية المضنية هي من أشد مصادر القلق والعذاب في حياتي، فكأنني أخوض بنفسي في الوحل وأتلقى صبيب المطر فوق رأسي شتاءً وصفائح اللهب والعرق المغلي صيفًاو حتى بت أكره المطر والحر إلى حد الشعور بالقهر تجاههما.

سرعان ما تبينت أن الحزن القابض على صدري يعصر قلبي بيد من حديد انما هو سبب من القلق على زوجي وأولادي. فنحن نسكن في شقة معزولة في الطابق الأرضي، جدرانها مبنية على طوبة واحدة، سقفها هزيل، بلا عمدان، أساسها قطع من الحجارة مدكوكة في الأرض. ولأن الصرف الصحي لم يدخل المنطقة بعد فإن المالك أعد تحتها بئرًا تتجمع فيها مياه الصرف ويتم نزحها كل عدة أشهر.

ولما تزوجت ابنته بنت لنفسها غرفة بمنافعها فوق شقتي، وأصبحت تلقى بمياه غسيلها ومسحها فوق سطحنا. تشوه سقف شقتي من الداخل؛ إذ تسربت المياه وسكنت بين المونة وحديد التسليح فتساقطت المونة في أكثر من تسعين في المائة من السقف. عرضت عليها أن نتعاون في صب السقف من جديد لكنها رفضت؛ إن هدفها بالطبع واضح: مضايقتنا حتى نرحل ونترك لها الشقة، وهذا هو المستحيل بعينه.

صرت أعيش في رعب مقيم؛ أفتح عيني كل صباح على

منظر السقف فوق رأسي، يهولني منظر أسياخ الحديد ظاهرة كالهيكل العظمي لجثث متآكلة اللحم، وأغمض عيني كل مساء على خوف من سقوط كتلة من المونة فوق رأس العيال. تنازلت للعيال وأمهم عن حجرتي باعتبارها بعيدة بعض الشيء عن منطقة الرشح.

كل من زارني من الزملاء والأصدقاء أخذه الروع وتساءل: كيف تقبل الحياة في هذه الشقة الآيلة للسقوط؟ ولكن لم يجبني أحدهم عن سؤالي: وكيف لموظف بسيط مثلي أن يجد شقة أخرى؟!..

دوي الرعد يزلزل ميدان التحرير. لا بد من أن الكون قد أصابه الجنون. سقف السماء نفسها سيقع بين لحظة وأخرى. سيول المياه المتدفقة من السماء توحي بأن البحار كلها قد انقلبت رأسًا على عقب وها هي ذي تدلق كل ما في جوفها. صار من المؤكد أن السيارة التي أنتظرها لن تجيء مطلقًا.

يبدو أن جميع خطوط هيئة النقل العام قد توقفت تمامًا عن العمل. فجأة ظهرت سيارة ميكروباص عند المتحف المصري، صبيها ينادي: المعادي المعادي، وثمة من يجرون نحوها لا أدري أين كانوا ينتظرون. جريت نحوها تحت السيل المتدفق والوحل يتناثر فوق وجهي، يتسلل إلى جوربي داخل الحذاء. كنت أعرف أن هذه السيارة ستتركني في محطة المعادي وأنني سأمشي خمسة كيلو مترات على الأقل لكي أصل إلى مسكني، مع ذلك رضيت. ثمة يقين يناوشني مؤكدًا لي أن البيت لا بد أن يكون قد

انهار منذ ساعات طويلة مضت، فتدب في أوصالي طاقة جبارة. الظلام من حولي كثيف، والبرق خطيف، والرعد مخيف، والسيل مندفع في الهبوط بقوة، والريح تقاومني ترد خطواتي إلى الخلف وأنا مع ذلك أناطحها وأبذل جهودًا مضنية لأنتزع قدمي من عجينة الوحل في كل خطوة أخطوها.

الحمد لله، لا يزال البيت قائمًا في مكانه. فتحت الباب ودخلت. الشقة ساكنة سكون الموت. ضغطت بأصابعي على زر النور في مكانه المحاذي للباب، لمع ضوء خاطف ثم طرقع المصباح وفصلت الكهرباء، حدثت قفلة. أعلم أن الأسلاك عارية، أي اقتراب منها أو من اللوحة يهدد بالخطر. أغلقت الباب بهدوء.

أشعلت عودًا من الكبريت مضيت على ضوئه إلى المطبخ، كانت بحيرات المياه فوق البلاط تعكس ظلي ممسكًا بعود الكبريت. بحثت في كراكيب المطبخ عن المصباح الزجاجي وأنا أدعو الله من أعماقي أن تكون به بقية من الجاز.

كانت زوجتي قد ركنته في ركن فوق الترابيزة المكتظة بالحلل والأكواب. أشعلت عودًا آخر، رفعت المصباح بحذر شديد. وبحذر أشد رفعت زجاجته وظللت ممسكًا بها حتى أشعلت الشريط ثم ركبتها متجاهلًا الهباب الذي ارتفع من الشريط ودهن عنق الزجاجة بلون الظلام. لا أعرف إن كانت هذه البرك الكثيرة من المياه تكونت مما لا يزال يسيل من ثيابي أم من السقف الذي لا يني يبصق دفقات متتالية من جميع الجهات.

رفعت رأسي تلقائيًا، رأيت السقف كثوب أسود عتيق

مشغول بالترتر؛ فنقط المياه متجاورة في دوائر وصفوف ومثلثات كالعناقيد، تتجمع تتضخم تتحد تتخلى عن أماكنها لتسقط صانعة فوق الأرض إيقاعات متوترة كالنذير المشؤم. فما إن تغادر النقاط أماكنها حتى تحل محلها نقاط جديدة تلفظها المنابع التي بدت بلا حصر في سقف الردهة.

تناولت من فوق البوفيه كتابًا من كتب العيال طرحته فوق المصباح ليتلقى الخيوط المتدافعة حتى لا تسقط فوق الزجاجة الساخنة فتكسرها. شعرت بأنني أرتدي فوق جسدي أطنانًا من الحمول الثقيلة. شعرت بالثقل الشديد في قدمي المتعبتين. زحفت إلى حجرتي، ركنت المصباح في ركن جاف، تخلصت من كل ملابسي، رميت بها في السلة كيفما اتفق. ارتديت الجلباب والفانلة الصوف أم رقبة وجوربًا؛ فشعرت بالاسترخاء يتمشى في عروق كأن جميع أعضاء جسمي قد تفككت. باندفاعة تلقائية رميت بجسدي على السرير منطرحًا فوق ظهري محاولًا تنظيم أنفاسي المضطربة.

لسعتني البرودة في ساقي؛ استشعرت البلل في اللحاف والمرتبة. انتفضت قاعدًا أتحسس هذا الجزء من الفراش، كان البلل متفشيًا بعمق. مع ذلك استوعبت الصدمة قليلًا لأفكر في علاج سريع. أنبأني الرعد المتلاطم وصوت زفيف الريح وانهمار المطر أن نصف العمى خير من العمى كله. تذكرت العيال. تجمعت في قفزة واحدة عن السرير. سحبت المصباح، مشيت به في حذر ويدي اليسرى تطرح الكتاب فوقه. خرجت إلى الردهة. غاصت قدمي في برك المياه المتجمعة فغرق الجورب. فتحت

حجرة العيال. الحجرة ساكنة تمامًا، ليس فيها ثمة من صوت لأي تنفس، لا صوت إلى صوت وقع المياه على المياه. رفعت المصباح لأعلى، طالعت منظر السرير، كان بكامل فرشه، اللحاف مفرود، تظهر تحته أطراف البطانية، ومن فوق اللحاف طشت الغسيل قد امتلأ لقرب حافته بالمياه التي لا تني تتساقط فيه بغزارة من السقف مكشوف الأضلاع، وقد وضح أن المياه تسللت إلى مواسير الكهرباء الظاهرة تحت بقايا كتل المونة التي انفصلت أطرافها عن أعلى الحوائط وتهيأت للسقوط..

سقط قلبي، صار يتدحرج في برك المياه، يغيب لحظات في الوحل ثم يطفو ليختفي. يا ربي.. أين ذهب العيال وأمهم؟! أتكون المسكينة قد أخذتهم وسافرت إلى بلدتنا؟ أشك تمامًا؛ ليس معها نقود تكفي لنفقات السفر، وإذا كنت أنا قد عانيت كل هذا العناء لمدة نصف يوم لكي أجيء من ميدان التحرير إلى المعادي فكيف لزوجة بأربعة عيال أن تسافر إلى قرية في شمال الدلتا بعيدة عن كل المواصلات في يوم كهذا إلا أن تكون مجنونة جنونًا مؤكدًا، وإن كانت قد جُنَّت بالفعل واقترضت أجرة السفر فإنها تكون الآن في قمة العذاب في فك خطر محقق، خاصة أن بلدتنا نفسها تتحول في مثل هذا اليوم إلى معجنة بمعنى الكلمة، وتنقطع جميع الطرق الموصلة إليها. أم تراها قد لاذت ببيت من بيوت الجيران؟ وهل يمكن أن تكون إحدى صديقاتها قد أشفقت على العيال فدعتها للمبيت عندها؟.. أشك أيضًا، فزوجتي ليست تستجيب لمثل هذه الدعوات حتى ولو رأت الموت بعينيها.خرجت إلى الردهة مضطربًا لاهث الأنفاس، انحنيت على كل ركن أفتش

عن ورقة تكون قد كتبتها لي، لم أجد شيئًا. أعدت المصباح إلى الركن الجاف داخل حجرتي، خرجت إلى الردهة، فتحت باب الشقة، داهمتني ستارة مشغولة من خيوط المياه كستائر الخرج على أبواب الحلاقين. اخترقتها إلى باب الشقة المواجهة المبنية حديثًا، وقد أشرق الأمل في رأسي إذ أتذكر أن الست أم مجدي ساكنة هذه الشقة تقيم فيها مع ابنتها العانس وحدهما منذ رحيل زوجها قبل عامين، رجحت أن تكون هي التي دعت زوجتي للمبيت عندها على الأقل لحين عودتي. طرقت الباب بيد وجلة مرتعشة. بعد عدة طرقات جاءني صوت أم مجدي من أغوار بعيدة يصيح في عصبية وسخط بين طبقات خشنة من صدأ النوم: «مين اللي بيخبط؟!». خرج صوتي مهيضًا مرتاعًا: «أنا فلان يا أم مجدي». قالت بوضوح وأريحية: «خير يا فلان؟». قلت: «زوجتي وعيالي عندكم؟».

قالت بحسم: «لا». سألتها بسرعة في ضراعة: «ألم تقل لك أين ذهبت؟». قالت: «بصراحة لم أرها اليوم! أنا لم أفتح بابي طول النهار». عدت إلى شقتي أقاوم الرغبة في الصراخ، كنت أشعر بصرخاتي الدامعة تنضغط في حلقي متكورة كأنني مرغم على ابتلاع بيضات حديدية.

سمعت خطوات تقترب من عتبة الباب، وهمهمة ميزت فيها صوت ابنة المالك وزوجها فعرفت أنه مر عليها في بيت أمها المجاور فأتى بها ليناما في غرفتهما المنزوية في ركن قصي فوق سطح شقتي. بقيت واقفًا في فتحة الباب لحقت بها وهي تقفز إلى السلم، سألتها إن كانت قد رأت زوجتي اليوم؟ فقالت؟

لا، ثم اختفت. أغلقت بابي، خلعت الجورب والجلباب والفانلة؛ بحث في الدولاب عن أية خرق أرتديها، لكن زجاجة المصباح فرقعت فجأة وانطفأت شعلة الشريط الذي تشبع بالمياه؛ فلم يعد قابلًا للاشتعال. تحسست في الظلام موضع الجلابية والفانلة ثم ارتديتهما كيفما اتفق، وانطرحت على السرير منخرطًا في بكاء حارق. كان التعب قد هدني وشل أطرافي، شملتني حالة من اليأس داست فوق جسدي بقوة جبارة، حتى خيل لي أنني قد غصت تحت سابع أرض أقاوم لاسترداد أنفاسي لكنني عاجز عن تحريك أية عضلة في جسدي. كنت أشعر أنني أطفو قليلًا فأسارع بالتقاط الأنفاس ثم لا ألبث حتى أراني غصت تحت الأرض من جديد في غيبوبة. وذات طفوة طويلة النفس فوجئت بأنني قد فتحت عيني فإذا بي لا أزال منطرحًا على ظهري في بطانة من البلل، وقد رق الظلام قليلًا، وصوت المطر لا يزال يوش. وفيما أنا بين النوم واليقظة تناهى إلى مسمعي صوت أصغر عيالي يشرع في البكاء لكن يبدو أنه استسخف نفسه فسكت، إلا أن صوت أمه جاءني بكل وضوح يسأل الولد عما يريد ويصيح فيه محذرًا إياه من أية حركة. أنصت إلى الصوت جيدًا، ثم أغمضت عيني في تطامن مع الصورة التي صارت تتضح في ذهني وتُسرِّب إلى شفتي مشروع ابتسامة لشدة غرابة الصورة وطرافتها، صرت أسائل نفسي متعجبًا: كيف استطاعت هذه الزوجة التعيسة أن ترص عيالها فوق المرتبة على السرير ثم تفرد فوقهم البطانية فاللحاف فتخفيهم تمامًا، ثم تخفي نفسها بجوارهم ثم تضع طشت الغسيل فوق اللحاف ليتلقى قطرات المطر؟! لم أعرف بالضبط كيف فعلت ذلك، كل ما أدريه

أنني ظللت بقية الليل متيبسًا أتجنب الحركة شاعرًا بالطشت الملآن بالماء مثبتًا فوق صدري ورأسي وسائر جسدي، وكنت أقاوم لضبط أنفاسي تحت ثقله الشديد.

سَتْر المفضوح!

نجحت مؤامرتي مغامرتي بعون من الله وتوفيقه حيث تم الأمر في سرية تامة. طوال فترة التدابير لأكثر من عشرة أيام كنت أشعر من حين لآخر بشيء من الخسة في سلوكي هذا، إلا أنني كنت مصرًّا على المغامرة كمنفذ وحيد للتنفيس والتمرد

وهكذا استطعت إخماد الخبر في منبعه فلم يصل إلى علم زوجي وعيالي أن المؤسسة الحكومية التي أعمل بها موظفًا فنيًّا منذ تخرجي في كلية الفنون التطبيقية سترد إلى جميع العاملين فيها مبالغ لا بأس بها، قيل إنها فروق الضرائب التي كانت تخصم من مرتباتنا بطريقة عشوائية ثم اتضح في نهاية العام المالي على ضوء اللوائح أنهم كانوا غير محقين في خصمها.

من جانبي تلقيت الخبر ببرود متعمَّد حتى لا أصاب بصدمة إذا ظهر كذبه. فلما أثبتت تحرياتي الداخلية أن الإدارة أعدت الكشوفات بالفعل وأن الصراف في انتظار توقيع الشيك ليبدأ الصرف، قررت أن أتآمر على هذا المبلغ الخاص بي فأستأثر به وحدي لعلني أستعيد به لحظات وأشياء كانت حميمة وحرمت منها منذ أن تزوجت قبل خمسة عشر عامًا وأصبحت

أحصل على مصروف يومي كأنني ما زلت تلميذًا، مع فارق جوهري هو أن المصروف أيام التلمذة كان يكفيني بالراحة أما وأنا موظف بمرتب لا بأس به فإن مصروفي اليومي يسجنني في إطارٍ سلوكيّ لا أحيد عنه مطلقًا. ولكي أضمن عدم تسريب الخبر إلى بيتي ركزت على الصراف وقسم المراجعة.

ذلك أن زوجي بما تتميز به من نفس مفتوحة صافية وروح ودودة كريمة أصبحت تعرف أصدقائي المقربين في القسم الفني، وأصبح لها الدلال على الصراف وقسم المراجعة في الإدارة، لا حرج في أن ترفع سماعة التليفون وتدردش مع الصراف تسأل عن المدام وصحة العيال وبالمرة تعرف إذا ما كانت المرتبات قد بدئ صرفها أو متى ستصرف؟ فإن حلف لها بطربة أبيه أن التأخير من قسم المراجعة، الذي لم يرسل الشيك بعد وأنه مستعد لإرسال المرتب لها بمجرد حصوله على الشيك حتى قبل أن يصرفه؛ فعندئذ لا تتورع عن طلب الأستاذة عفاف رئيس قسم المراجعة فما ان تسمع صوت الأخيرة عفاف رئيس قسم المراجعة فما إن تسمع صوت الأخيرة حتى تدخل فيها شمالًا بغير مقدمات وهي واثقة بأن السيدة عفاف ستعرفها من هذه الدخلة الاحتجاجية الساخنة، وستهتف مهللة مرحبة طالبة العفو والسماح لمدة أربع وعشرين ساعة على الأكثر.

زوجي إذن ملمة بأخبار الفلوس بكل دقة وإحاطة، تعرف أن الحوافز تصرف شهرًا بعد شهر ـ قبل أن أعرف أنني سأحصل هذا الشهر على نسبة خمس وسبعين في المائة وأنني يجب أن أفسر لها كيف تراخيت في الجد والاجتهاد حتى تسببت في

نقص النسبة خمسًا في المائة عن الشهر الفائت.

تعرف كذلك أن الساعات التي أمكثها في المؤسسة فوق ساعات العمل الرسمية حصيلتها في الشهر كذا، وأنه يصرف معها بدل إعاشة خمسة جنيهات في اليوم ستتركها لي أفنطز بها على نفسي طالما أنه قد كُتب عليها أن «تقطع من جتتها» لتفي بمصروفات المدارس والدروس الخصوصية ناهيك عن ولعة الأسعار، حتى ان الطبخة الواحدة أصبحت تتكلف وحدها مرتب وكيل وزارة في عهود قريبة سابقة، حتى فواتير الكهرباء والماء والتليفون انضربت بقرد وعفريت بات يطلع لنا في الفراش يحرمنا النوم والمتعة وكل شيء، أم تراك - تقول - تنسى أننا - يا دوبك - نجاهد لنبقى أحياء فحسب؟ منذ متى لم أشتر لنفسي فستانًا جديدًا أو ملابس داخلية؟ من العيد قبل الفائت فهل هذا يرضي ربنا يا مسلمين؟!.. خلاص يا ستي.. كفى..

أنا حفظت هذه الأسطوانة بل هي منقوشة في صدري.. تنكري أنت أيضًا أنني قد حرمت نفسي من كل شيء، لا أرتدي سوى أردأ القمصان والبراطيش فمتى تكفين عن توبيخي مع أنك لا ترين أي تقصير من جانبي، بل إن جميع ما يصيبني من فلوس تقبضينها أنت بنفسك من الصراف يدًا بيد ولا أعرف عنها شيئًا.

الحق لله أكون متأذيًا من ردودي عليها إذ إنني أدرك تمامًا إلى أي حد هي صادقة معذورة في تذمرها الدائم. أعترف بأن المرتب والحوافز والإضافي وكل ذلك - لولا حكمتها وحسن

تدبيرها وانصراف نظرها عن كل مظهر كذاب - لا يستطيع الوفاء بمتطلبات أسرة مكونة من ستة أفراد وشغالة ريفية صغيرة تقاسمنا اللقمة والفراش والدواء.

أعترف كذلك بأنه لمن الخسة أن أخفي عنها أي مدد جديد رغم علمي بما هي فيه من شقاء وعوز، ولكنني كنت مشحونًا بالرغبة المحمومة في استرداد شخصيتي التي أشعر أنها تكاد تندثر تحت جبال من القهر والضيق وانحصار الأفق، أصبحت تواقًا إلى أن أضع يدي في جيبي فأجد فيه فلوسًا تخصني تتيح لي أن أجلس في مكان عام واضعاً ساقًا على ساق وأطلب مشروبًا منعشًا للمزاج، أن أحود على الكبابجي وأمارس لذة الشره في أكل السلاطة الخضراء قبل مجيء الكباب، أن أشتري قميصًا محترمًا، حذاءً عليه القيمة، أن أمارس سهرة مع الشلة من الأصدقاء الذين يشوفون مزاجهم كل ليلة وكأنهم يغترفون الفلوس من بئر لا تجف، عقدتي أنهم عزموني أكثر من مرة فأصبحت أحلم - نعم أحلم - بأن أعزمهم ولو لمرة واحدة.

يوم ذهبت إلى الصراف لأقبض فروق الضرائب لذّ لي أن أتأخر طويلًا حتى لا أقف في الطابور، هكذا قلت لمن دعاني لمرافقته إلى الخزنة من زملاء القسم، ولكنني فطنت إلى أن ملابسات السرية التي أقمتها حول خبر الفلوس جعلتني أرغب في ألا يراني أحد لحظة قبضها، مع أنني لست مدينًا لأحد على الإطلاق في المؤسسة وأضع شايي وسكري ووابور السبرتو في خزنة مكتبي حتى لا يغريني بوفيه المؤسسة بالسحب منه. الطريف أنني حينما لحقت بالصراف في آخر لحظة قبل انصرافه

أبدي لي تعجبه من أننا جميعًا جئنا إليه منفردين نتلصص ونتلهوج كأننا نختلس، ثم قال ان تسعين في المائة من الموظفين كبارًا وصغارًا همسوا في أذنه برجاء حار بألا يخبر أحدًا عن سيرة هذه الفلوس فلما ضاق بتكرار الهمسة نفسها صاح ضجرًا: «حد مين يعني؟!»، فتلقى ردًا متشابهًا بها:

«أي حد، أي حد والسلام»، ونطقت نظرته الموروبة مع لسانه عبارة: هم يقصدون زوجاتهم بالطبع كأنهم يفترضون أنني على علاقة بجميع بيوت السادة الموظفين وهذا غير صحيح بتاتًا.

المبلغ الذي قبضته كان دافئًا جدًا، كان فوق الأربعمائة جنيه ببضع برايز وضعتها - بتوجيه من الصراف - في صندوق للصرف على المصلى التي أقامتها اللجنة النقابية بعد نجاحها في الاستيلاء على نصف مساحة الجاراج الخاص بالمؤسسة، إذ لا بأس - في نظرهم - من أن تبيت السيارات في العراء لكي يؤدي الموظفون فرض الصلاة جماعة في مواقيتها في أثناء العمل.

رغم أن مرتبي في السفرات الأخيرة ببدلاته وتعديلاته وغلاءاته وترقياته قد تجاوز الألف وخمسمائة جنيه، ورغم أنني سبق أن قبضت من المؤسسة سلفيات وصلت إلى عشرة آلاف جنيه تم خصمها بعون الله من المرتب على أقساط انتهت منذ شهور، فإنني لم أشعر بدفء الفلوس وحلاوة ملمسها إلا لحظة قبضي لهذه الأربعمائة جنيه.

أغلقت باب الحجرة، فتحت درج مكتبي، انكفأت بلذة ورعشة حميمة، رحت أجمع وأطرح وأضرب وأقسم على مشاريع

شاهقة كانت كثيرًا ما تراودني تحت وطأة الفلس.

إلا أنني ما لبثت حتى ووجهت بمشكلة بدت رهيبة مقلقة: كيف أخبئ هذه الفلوس في مأمن؟ كيف أنجو بها؟.. صحيح أن زوجي ليس من عادتها تفتيش جيوبي إلا أن هذه الحفنة التخينة من العشرات ليس من السهل إخفاؤها في أي جيب وإلا فإنها تكون كالبذرة الحرام في بطن خاطئة مفضوحة بالانتفاخ، ثم إن محفظتي التي شضّضت وجف جلدها من طول الفلس فتلوّت وتكعبرت من طول حشرها في الجيب الخلفي للسروال لم تعد تقبل استيعاب أكثر من عشرين، ثلاثين جنيهًا.

انتشيت برائحة الفلوس وكان لملمسها لذة في الأنامل كلذعة الخمر المعتقة في لسان الشريب، حقًا إن للفلوس زخمًا ورائحة نفاذة، أحيانًا كعطر الفل والياسمين، وكرائحة الشيح والفلفل أحيانًا أخرى. ها هي ذي رائحة الشيح والفلفل تطرد من خياشيمي رائحة الفل والياسمين، ها هو ذا صدري ينقبض فجأة، تنهال على ذاكرتي مئات من الليالي الكئيبة عشناها أنا وزوجي وعيالي نضرع إلى الله أن يهبنا ربع هذا المبلغ من أبوابه الواسعة الكثيرة: ليلة مصاريف المدارس، ليلة الملابس الرسمية المقررة، ليلة كسوة العيد، ليلة فاتورة التليفون، ليلة قسط الثلاجة أو البوتاجاز أو التلفزيون والفيديو والسخان وشفاطات للمطبخ والحمام وحجرة نوم العيال..

ليال لا حصر لها ولا نهاية، ولربما حلت واحدة منها بعد أيام قليلة. وصحيح أنها دائمًا تنتهي بطلوع النهار ولكن بطلوع

الروح أيضًا، حيث ينهد المرء مكسور القلب والعين من فرط الشعور بالذلة والهوان أمام ديون لا يقوى على تسديدها ومطالب ملحة لا يفي بالتزاماتها ومع ذلك لا يجد لديه وقتًا للحزن أو للثورة أو حتى لإعلان الضجر؛ إذ ما يكاد يرتخي بعد شدة قاسية حتى ينشد حيله برغمه ليواجه ليلة تالية حافلة بألوان من المنغصات والتهديدات والتوعدات المرعبة...

شعرت أنني على وشك أن أنهزم فأحرم نفسي من حلم الشبرقة ورفع الهامة والعيش في بحبوحة ولو لعدة أيام. بدأت يدي تهتز، بدت الفلوس وكأنها تتواطأ مع زوجي وعيالي، إذ راحت تنتفض بين يدي متذمرة حانقة نافرة، تتبعثر ويتخفى بعضها بخبث متسللة تحت الأوراق، فأجمعها وأحاول عدها من جديد فإذا هي تتلاصق ببعضها وتستعصي على الفصل فأبلل أناملي بريقي وأضغط بإبهامي لأزيح الورقة عن أختها فتنزاح بعد لأي آخذة في حضنها عدة ورقات. تأكدت على كل حال من أنها لم تنقص. لمحت حافظة الأوراق التي أتأبطها باستمرار، وضعت المبلغ في مظروف حكومي أصفر وبللت طرفه بلساني ولصقته ثم عزّزته بشريط لاصق ثم وضعت المظروف بين طيات خريطة من الخرائط التي يكلفني القسم الهندسي برسمها، ثم حشرت الخريطة داخل كراسة من كراسات المقايسات، ثم وضعت الكراسة بما فيها داخل مظروف فلوسكاب وأغلقته بشريط لاصق ثم أخفيته بين طيات جريدة الأهرام وحشرتها في الحافظة ثم تأبطتها وأغلقت درج المكتب بالمفتاح وخرجت من المؤسسة قاصدًا قهوة الشيشة كعادتي كل يوم قبل المآب إلى البيت.

الشيشة التمباك هي مع الأسف متعتي الوحيدة في الحياة حيث تتيح لي فرصة تفريغ ما في النفس من توتر أشاعته ساعات العمل المحموم.

مصروفي اليومي منضبط على ثلاثة حجارة مع فنجان قهوة أرطب به حلقي من الدخان طوال حصة الأصيل، ثم أدفع جنيهين وربع في الصينية وربع جنيه على سبيل البقشيش للجرسون ثم أنصرف إلى بيتي راضيًا مبسوطًا.

كل عمال المقهى يعرفونني جيدًا، بيني وبينهم عشرة طويلة أذابت الفوارق والحواجز بيننا لدرجة أنهم باتوا على علم بوضعي المادي، بل كثيرًا ما شاركوني هموم الأزمات المادية الملحة التي تعرضت لها وحادثتهم بشأنها للاستفادة بخبرتهم في إقامة الجمعيات التعاونية حيث يدفع المشتركون مبالغ متساوية ليقبضها أحدهم حسب ترتيب متفق عليه. حتى عم نور ماسح الأحذية الوحيد على المقهى يتعاطف من بعيد لبعيد ويمعن في التقرب مني بذريعة أنني رجل صريح وجدع ولساني حلو وما دمت هكذا فملعون «أبو» الدنيا كلها إذ إن الكريم لا يضام حتى لو تكاتفت عليه الأزمات. و«فاوي»، الفاكهي السريح الذي يفرش على رصيف المقهى بشوئيات صغيرة منتقاة ذات منظر خلاب يسيل له لعاب المغرمين بالمخصوص المتميز من أصناف الفاكهة: قفص تين درجة أولى، قفص عنب بناتي مضيء، سلة مانجو ألفونس زاعقة الرائحة.. إلخ؛ هذا الفاكهي بنظرته الثاقبة ومفهوميته النافذة عمره ما استدرجني للهراء مطلقًا.

أراه كل يوم يخرم على واحد من الزبائن حيث يحييه ويطبع قبلة صاخبة على قبضة يده قبل أن يمدها للمصافحة، ثم يشفع غمزة اليد بغمزة العين قائلًا في إغراء دافئ:

ـ «معايا شوية تين مهيطل بينادوا الأكيل النزيه».

وقبل أن يسمع ردًا يهرول خارجًا ثم يعود بالمشنَّة الخوصية ويروح يعرض حباتها واحدة بعد واحدة في مهرجان مصحوب بدعوة للتذوق بالمجان بالهناء والشفاء، أما الفلوس فمفيش فرق يا سعادة البيه. في الغالب لن يفلت الزبون من شراء الشروة وسيكون راضيًا شاعرًا بأنه الكسبان.

لم يحدث أن أعارني هذا الفاكهي أي اعتبار اللهم إلا عبارته الودودة التي يدحرجها من بعيد: مساء الخير يا سعادة البيه. بدوري كنت راضيًا بذلك حتى لا يورطني في أي حرج، وإن كنت أضمر مع ذلك ضيقًا شديدًا من تهميشه لي على هذا النحو.

حين وصلت إلى مقهى الشيشة في باب اللوق كان الأصيل يصبغ شارع التحرير وميدان الفلكي بلون البن اليمنى الذي ينشر في الميدان رائحته الحريفة الزاعقة المنبعثة من محل بنان شهير على ناصية الميدان المليء بعديد من المقاهي.

نزلت من الباص، عبرت الميدان، حاذيت سور الجامعة الأميركية فيما أتحسس بأصابعي ـ شأني دائمًا ـ ما تبقى في الجيب الصغير من الجنيهات الثلاثة التي أخرج بها من بيتي كل يوم لأطمئن إلى أن نشالًا ممن احتكوا بي في الباص لم يلهفها.

رصيف المقهى كان مرشوشًا بالماء، ونسمة سبتمبرية لزجة تلفح الوجوه، والجو يضمر غبارًا داكنًا مكبوتًا وخانقًا، والزبائن على المقهى قد انكسرت رقابهم وانكفأت وجوههم على مباسم الشيش، وجوههم ممسوحة الملامح كقروش معدنية اضمحل ما كان عليها من نقوش وتواريخ آبت إلى ما يشبه الأورام كبقايا دمامل أو جروح، وجهاز التلفاز في رف عال قرب السقف يحدث نفسه بصوت عال عن المذابح في فلسطين المحتلة، ولكن الصوت يضيع في صخب الجرسون وعامل النصبة والنداءات المتواصلة بينهما. كمنت - كعادتي - في الركن الملاصق للباب وهو موقع يمكنني من متابعة الشارع وشاشة التلفاز معًا.

بمجرد جلوسي فوجئت بعم نور ماسح الأحذية يقعي تحت قدمي برقعة من الورق المقوى، منتظرًا أن أخلع حذائي وأعطيه له وأضع قدمي على هذه الورقة. جمدتني الدهشة، رجحت أنه لم يرني جيدًا فظنني شخصًا آخر. ذلك أنه في العادة لا يقتحمني هكذا أبدًا، لا يأتي إلا إذا طلبته، وفي المرات القليلة التي رغبت فيها في مسح حذائي - وهي مرات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة خلال سنين تزيد على أصابع اليدين - كنت أناديه فلا يصدق فيضطر إلى مراجعتي للاستيثاق من أنني ناديته بالفعل، بل يشير إلى حذائي مكررًا التساؤل: تمسح؟ فأكتفي بخلع الحذاء تأكيدًا له أن: نعم. ولم أكن أعتبر ذلك غباءً منه يضايقني؛ إذ هو يعرف بالتجربة وبالممارسة وبالذكاء البلدي اللماح أنني لست أفكر في ورنشة حذائي إلا إذا توفر فوق مصروفي المعتاد

خمسون قرشًا أعطيها له.. فما باله اليوم يقتحمني هكذا فوز جلوسي دون أن أدعوه؟!..

جعلت أصابعه تلامس قدمي تستحثني على خلع الحذاء، فصحت فيه مبتسمًا باحتجاج:

- «فيه إيه يا عم نور؟ أنا مش عايز أمسح» ابتسامته الهتماء تتسع، يسطع عليها بريق عينيه الضيقتين.. فبدا لي أن وراء هذه الابتسامة الموجهة شيء ما، لعله الاستبشار أو التوقع البهيج. قال:

- «أنا عارف إنك مش عايز بس حاديها فرشة على الناشف».

- «وليه طيب؟ ما هي كده كويسه».

- «مزاجي أنضفها بالمجان.. غلطان أنا؟!».

لحظتئذ وضع الجرسون الشيشة أمامي وسلمني المبسم لكي أجرب إيقاع ضرب الماء فيها. تخلصت من عم نور بأن خلعت فردتي الحذاء بقليل من الضجر. لم أكد أستطعم نكهة التمباك المحترق مع أول رشفة من فنجان القهوة حتى عاد عم نور بفردتي الحذاء وقد أصابهما لمعان ذكرني بأنها كانت بالفعل جرباء كالحة. شكرته بصدق فيما أضع قدمي في الفردتين وأزيح الورقة ليأخذها، إلا أنه تركها وسحب كرسيًا وجلس بجانبي ملوحًا بذراعه وعينه نحو عامل النصبة بإشارة تعني احتياجه لكوب من الشاي الثقيل. شعرت بانقباض من فرط الغيظ إذ هو

يورطني الآن في هذا الواحد شاي كأنني استضفته بإرادتي فليتني إذن تركته يورنش الحذاء بالصبغة والورنيش بدلًا من تنفيضه بالفرشاة فحسب؛ لأن ثمن الواحد شاي هنا خمسة وسبعون قرشًا أما أجرة المسح فخمسون قرشًا فقط. عندئذ اضطربت معدتي وانحرف مزاجي؛ إذ فطنت إلى أنني لكي أحاسب له على الواحد شاي لا بد من أن أكتفي بحجري شيشة فقط بدلًا من ثلاثة. ثم تذكرت الفلوس فعجبت أشد العجب لأنني كنت قد نسيت تمامًا أنني أدس في حافظة أوراقي أربعمائة جنيه مقفولة مبرشمة ومكفنة بمظروف سميك داخل كراسة من داخل خريطة من داخل مظروف آخر كبير طويت عليه جريدة. سرعان ما زال عجبي؛ ذلك أن الأمر الطبيعي الذي اعتدته يوميًّا على امتداد عمري كله ألَّا يكون في جيبي أو في حوزتي مبلغ كهذا حتى وإن كان قليل القيمة في زماننا الخسيس الذي انعدمت فيه القيمة.. إلا أن شعورًا بالفرح هدهدني؛ لاكتشافي إمكانية نسيان هذا المبلغ؛ هنا طاب لي أن أنساه من الآن عامدًا متعمدًا، أنساه كأن لم يكن؛ فمما لا شك فيه أن ظهوره ذات لحظة مأزومة سيكون أشبه بطاقة من النور انفتحت علينا من السماء.

راح عم نور يشرب الشاي ويحاول اصطياد عيني، مما وشى بأنه ينوي تصديع رأسي بكلام يؤرقه وهو لا شك يبحث عمن يلقيه عليه ليخلص منه. أخذت أدبر لصرفه بأي شكل، إلا أن نظراته المعقوفة كالخطاف اشتبكت بعيني، وتكفلت بسمته الذكية الودودة بتعليقي أمامه كالذبيحة الباردة.

لا أنكر كيف بدأ يتحدث ولا كيف دخل في الموضوع

لكنني أفقت من شرودي فجأة على رجل عجوز سيطرد الليلة من الحجرة التي يسكنها في درب الجماميز؛ لأن الإيجار قد تراكم سبعة أشهر كان خلالها يزوج ابنته الكبرى وقد دفع دم قلبه ليسترها، ولو كان الأمر عليه وحده لهان فيا طالما جرب التشرد والنوم في العراء سنين عددًا ولن يتعب إذا هو عاد للعراء مرة أخرى إنما المصيبة أن زوجه وستة عيال سيتعلقون في رقبته أينما ذهب، فماذا يفعل مع العلم بأنه لم يعد يملك شيئًا يستحق البيع أو الرهن؟.. هذا الرجل باختصار هو عم نور المزنوق في مبلغ مائة جنيه ليس أكثر!!

كتمت غيظي وحنقي متذرعًا بالصبر لتمثيل هدوء الأعصاب. اختصرت كل ذلك في ابتسامة شاحبة، هززت رأسي مرددًا في لطف مصطنع:

- «أنا داخلي إيه يا عم نور؟! هو أنا ناقص وجع قلب؟».

لم يفرط في بسمته بل أنعشها لتتسع لمزيد من الود الذي يفترضه، بعشم مبالغ فيه وأخوية ماسخة شوح قائلًا:

- «هو أنا باقول لك ادفعهم لي كلهم؟ أنا قصدي يعني لو تقدر تساهم بحاجة أهي نواية تسند الزير! والجودة بالموجود!».

أفرغت كل حنقي في سحب أنفاس متتالية من الشيشة ثم رفعت الكسوة النحاسية عن النار وجعلت أضغط بالماشة فوقها وأزيح من تحتها رماد التبغ المحترق، كأنني أزيح رمادًا آخر قد تراكم فوق صدري. شربت آخر جرعة في فنجان القهوة وقد

راودتني رغبة في الانصراف إلى غير رجعة، إلا أنني فوجئت بالجرسون في لمح البصر قد رفع الحجر ووضع الحجر الثالث والأخير؛ فاستدعيت كل مظاهر المودة وملت نحو عم نور هامسًا:

- «يا عم نور إنت أدرى الناس بإني راجل على باب الله زيك بالضبط يعني بادبر مصاريفي الشخصية بالعافية.. وأنت مالكش عندي حاجة عشان أقول لك الكلام ده لكن أنت مش غريب! وكمان راجل بتفهم!».

- «معناته إيه الكلام ده يا أستاذ؟».

- «معناته إني آسف.. مش حاقدر أساعدك بأي مساعدة.. لأني.. ممعييش فلوس».

هكذا ألقمته حجرًا ليفضها سيرة ويمشي، لكنه حملق في وجهي منذهلًا فاكتشفت أنه واسع العينين بصورة مخيفة. ثم جعل يشير بأصبعه السبابة نحوي في استنكار شديد كأنه يندد بكذبي على الملأ:

- «إنت.. ممعاكش فلوس؟».

- «إيه؟ عجيبة يعني؟».

- «بس أنا من غير مؤاخذة متأكد إن معاك فلوس!! ولمؤاخذة بقى: بنعمة ربك فحدث!».

قال ذلك مجتهدًا أن يخفض صوته بقدر الإمكان. لويت بوزي في قرف، هززت رأسي ضجرًا وغضبًا:

- «حِل عني بقى يا راجل أنت.. مش معقول اللي بتعمله فيّ ده!».

نكس رأسه قليلًا ثم هب واقفًا، صاح في الجرسون:

- «الشاي اللي نزل لي ده عندي يا منصور!».

ومضى إلى صندوقه المركون على ناصية ممر يخترق رصيف المقهى ويمتلئ بالكراسي؛ لكن النظرة التي رماني بها عند وقوفه شخصت في عيني مؤكدة لي أنه واثق تمام الثقة من أنني أملك الآن فلوسًا تكفي على الأقل لإقراضه مائة جنيه، فهل تراه قد رآني وأنا أقبض من الصراف؟! إن شيئًا لم يطرأ على مظهري ليعطي وشاية بأني تحينت فجأة وصرت قادرًا على الإقراض، ولمن؟ لشخص لا تربطني به أية صلة على الإطلاق، وقد غاب عن باله أنه ليس بالذي أضحي من أجله باقتطاع مبلغ كهذا من منحة هبطت عليّ من السماء كما ينزل القطر على أرض شراقي.

من فرط شعوري بالدهشة والعجب رحت أتذكر كيف واريت الأربعمائة جنيه في عديد من الأكفان، وصورة الممثل فؤاد المهندس في مسرحية سيدتي الجميلة وهو موتور يعد على أصابعه قائلًا: قميص بست زراير.. وصديري.. وجاكتة مقفولة.. إلخ.

فانفجرت برغمي ضاحكًا كالمجنون. عندئذ جاءني الجرسون بكوب ماء مثلج دون أن أطلبه، وبدون أن أطلب أيضًا رفع كسوة النار وقام بتعديل وضع الجمرات وتغيير المنطفأة

منها أحسست أنه يتلكأ لغرض في نفس يعقوب.. آنئذ زحف علينا ظل كثيف، تبينت فيه شخص الفاكهي فاوي، يحمل مشنة مصنوعة من خوص النخيل، ارتصت فوقها حبات المانجو التيمور المبططة بصورة مغرية. وضع المشنة أمامي على الطقطوقة النحاسية ثم جلس بجانبي قائلًا للجرسون في أريحية صعيدية متقنة:

- «ما توصي لنا على اتنين شاي في الخمسينة حلوين كده عشان خاطر البيه!».

تجاهلته تمامًا، مانعًا عيني من النظر إليه أو إلى المانجو وقد شعرت بسخونة الدم تصعد إلى وجهي: هذا الفاكهي فاوي هو الآخر عمره ما فعلها؛ فطوال أكثر من خمسة عشر عامًا وهو يراني كل يوم ولم يحدث أن عرض علي بضاعة، فما هو السر في أنه اليوم - واليوم بالذات - يأتيني ليجلس بجواري ويطلب شايًا لي، متأهبًا للدخول معي في مفاوضات ومساومات؟ ترى هل تأكد هو الآخر من أنني أحمل فلوسًا في حافظتي وأنني اليوم فحسب دون ما مضى من أيام يرجى من ورائي خير؟! ما أفظع الضيق الذي يكتم صدري يجعلني شاعرًا بالمهانة.

ها هو ذا الأخ فاوي يشعل سيجارة مارلبورو، يشير بيده إلى المشنة:

- «شوية مانجه يستاهلوا بق سعادتك!

متنقيين بالواحدة من الجنينة رأسًا!».

لم أرد، ولعلني كنت أبحث عن رد مناسب يحسم الموقف باختصار ودون صداع..

- «بص حضرتك..».

جعل يمسك واحدة بعد الأخرى يديرها أمام عيني كجوهرة في يد صائغ، لكنني لم أبص. لحظتئذ جاء الجرسون بالشاي ووضعه ثم صار يقلب في المانجو باشتهاء واضح، ويغمز لي في إغراء الحريص على مصلحتي:

- «حلوين! حلوين جدا! إوعك تسيبهم! اتساهل مع البيه يا فاوي! دا البيه جدع وأخ عزيز!».

ثم أردف بجدية مفاوض في مباحثات الجلاء:

- «إنت عاوز كام يا فاوي من غير لف ولا دوران؟ عشان البيه ما يفاصلشي».

عبر كمه الواسع امتدت ذراع فاوي تلوح نحو السماء:

- «يمين المصحف وربنا شاهد دول تمنهم مائة جنيه بس أنا زهقت عشان مراتي من غير مؤاخذة بتولد في المستشفى وعاوز ألحق أروح لها! هات يا عم تمانين جنيه! بارك الله فيما رزق!».

صاح الجرسون في حماسة:

- «عداك العيب! حلو! حلو بصراحة! دا ولا شرة بلح رامخ».

برغمي نظرت إلى المانجو، كانت بالفعل قريبة من هذا التقدير، لم أكن أفكر في الشراء مطلقًا، فحتى لو أردت أن أبحبح على العيال بأكلة مانجو فلن تكون بمثل هذا المبلغ مطلقًا وإلا ثار عيالي أنفسهم واتهموني بالجنون، سيقول أحدهم:

«طب كنت اديهم لي للدروس الخصوصية»، ويقول آخر: «طب كنت هات لي جزمة بدال البرطوشة دي»، وستقول أمهم: «طب يا أخي كنت اديهم لي وأنا أملا بيهم التلاجة لحمة وفراخ». كل ما كان يشغلني بإلحاح شديد هو: لماذا توقع فاوي - في هذا اليوم بالذات دون ما مضى من أيام - أنني اليوم يرجى من ورائي بل وجاهز لدفع ثمانين جنيهًا بالتمام والكمال في أكلة مانجو عابرة؟! الأعجب من ذلك: كيف صار منصور الجرسون مقتنعًا بأنني - بكل هذه البساطة - يمكن أن أدفع - اليوم - ثمانين جنيهًا حتة واحدة في حين أنه - منذ يومين اثنين - اصطحبني إلى صهره الترزي كي يضمّني عنده ليفصل لي سروالين بالتقسيط بواقع جنيهين كل شهر؟! إنني أكاد أصاب بالجنون، حتى الكلام لم أعد قادرًا عليه.

سحبت آخر نفس، نحيت المبسم جانبًا، وقفت، دسست أصابعي في الجيب الصغير سحبت حجابًا مطويًا عدة طيات في حجم علبة الكبريت، فككته، فردته، لكي يتأكد الجرسون وفاوي أن هذين الجنيهين والنصف مقرر كل يوم هما كل ما أملك، ثم اغتصبت ابتسامة مهيضة هززت بها رأسي هامسًا في حرج:

- «عن إذنكم».

ومضيت مندفعًا كالسهم المارق كأن قوة عاتية تدفعني بأقصى سرعة إلى البيت. وحتى بعد جلوسي إلى مائدة الطعام كنت لا أزال أشعر بأنني لم أغادر المقهى بعد.

وفيما أرفع كوب الماء فوجئت بزوجي مرتفقة مسند الكرسي المقابل وراحت تتمعن في وجهي تتفرس في ملامحي كأنها تراني لأول مرة وقد أشرق على وجهها ضوء جديد طازج ذكرني بها وهي فتاة في فترة خطوبتنا، كانت ملامحها قد ارتدت غلالة رقيقة من بهجة شفافة تشي بلحظات من المرح قادمة بعد قليل. قلت كأني أبحث عن تفسير لتفرسها فيّ:

- «يظهر أني أكلت بشراهة! مسحت!».

ضحكت، وأيضًا كانت ضحكتها جديدة أو هكذا خيل إليّ لكنها ضحكة من الزمن القديم الجميل:

- «مش ده اللي لافت نظري! ألف هنا وشفا! يا ريت كل يوم تاكل بنفس كده!»

- «أمال إيه اللي لفت نظرك طيب؟».

هزت رأسها في حيرة، انسحبت عن الكرسي مقتربة من الأطباق الفارغة:

- «مش عارفه! إنت النهارده شكلك متغير والسلام!».

- «للأوحش طبعًا!».

- «بالعكس دي الحلاوة حتنط من عنيك! فيها فرحة

ورضا! وفيها حاجة غامضة مش فاهماها! أنا عاجناك وخابزاك! ما تاكلش بنفس كده مع أن الأكل مش ولا بد إلا إذا كنت مبسوط وبالك رايق! وكما فيه حاجة زي ما تكون عايز تخبيها وعايز تقولها ف وقت واحد!».

شوحت بذراعي في يأس وذهول، لامستها برفق وأنا ماض إلى الحمام لأغسل يدي. وهروبًا من نظراتها الثاقبة دخلت حجرة النوم تمددت على السرير محاولًا الانفراد بنفسي لأفكر بعمق في ملابسات ما حدث؛ إلا أنني فوجئت بزوجي تدخل حاملة كوب الشاي، وضعته على الكومدينو، ولتضمن له وضعًا آمنًا أزاحت حافظة أوراقي ثم تشبثت بها لمنعها من الوقوع نظرًا لضيق سطح الكومدينو.

راقبتها فزعًا من وراء قناة ظهرها النحيل، ثم اعتدلت جالسًا ممددًا ساقيّ لأمسك بكوب الشاي. أفزعني تعبير مفاجئ طرأ على وجهها حيث انطفأ الضوء على ملامحها لجزء من مليون من الثانية لكنه اشتعل فجأة كالتيار الكهربائي حين يعود عاليًا بعد انقطاع. صار وجهها مثل الفانوس الملون، كأن أصابعها وهي تلمس الحافظة قد أنبأتها بأنها حبلى على وشك أن تضع مولودًا مبهجًا، ثم ابتسمت وتكرمش أنفها وهي تقول بنبرة تقطر حدسًا واستبشارًا:

- «يا اختي؛ الشنطة دي مالها مكعبرة كده ومورمة؟!».

ثم أباحت لنفسها أن تضغط بأصابعها تتحسس فيما هي ترمقني بركني عينيها الساحرتين. أخيرًا جلست على حافة

السرير متعمدة أخذ ساقيّ تحت إليتيها المكتنزتين وشرعت تفتح الحافظة بهدوء متعمد وعلى وجهها شمس ساطعة لم أستطع الحملقة فيها فخفضت عيني مستسلمًا، لأرى في الظلام صراف المؤسسة يرمقني بنظرة تفيض سخرية وتهكمًا واستهجانًا، وكنت أشعر آنئذ بحركة يد زوجي وهي تنزع الأكفان واحدًا بعد الآخر في غبطة وحبور كأنها استردت وليدها الذي دبت فيه الروح من جديد وها هو ذا عائد إلى حضنها، وكنت أشعر كذلك بميلاد ليلة جديدة طازجة، ربما خلت من كوابيس الهموم.

تمت

المعادي ـ صقر قريش
في 25 ـ 9 ـ 2001

سراديب الضوء

فرحة النجاح في الحصول على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلد لأول مرة في تاريخها منذ إنشائها كمدرسة أولية ثم إلزامية، بدأت تتراجع شيئًا فشيئًا في دارنا، داسها كابوس عملاق، قدماه في أحشائنا ورأسه تخترق سقف دارنا. ذلك أننا نكاد لا نجد قوت يومنا إلا بصنوف من هوان لا يحتملها بشر، إلا أن أبي العجوز البالغ من عمره ثمانين عامًا ويعول أسرتنا المكونة من اثني عشر بطنًا يحتمله ببطولة خارقة، يمشي على قدميه صباح كل يوم ستة كيلو مترات - ومثلها في العودة - ليركب القطار من محطة البكاتوش إلى مدينة قلين ليجول في مقرات المحكمة والشهر العقاري وعديد من الإدارات يخلص فيها أوراقًا وطلبات والتماسات وعقودًا خاصة بمصالح ناس من أهل البلدة ليس لهم دراية بالإجراءات القانونية المتبعة وهو - أبي - يقوم بها نيابة عنهم وبتوكيلات رسمية نظير أجور تافهة، رغم أن الأمر الواحد قد يكلفه عديدًا من المشاوير جريًا وراء أوراق يجب أن تنتقل من مكان لتعود من جديد إلى نفس المكان مما يشكل زادًا من الحكايات المثيرة ليسهر عليها أبي وعملاؤه في مندرتنا كل ليلة، حيث يبدو الانبهار والتقدير على وجوه العملاء الفلاحين

بما يشي بالرغبة الصادقة في تعويضه عن هذه الجهود الزائدة عن الأجر المتفق عليه، لولا أنهم ليسوا يحملون نقودًا في كل وقت، إنما هم يدبرون لكل أمر نقوده ببيع شيء من محاصيل القمح أو الفول أو الأرز أو الذرة أو حتى من بيض الدجاج وفائض الألبان والسمن والجبن القريش والضاني، وهم يجدون بعض الحرج في أن يعرضوا على أبي شيئًا من هذا مكافأة له على تسجيل عقد أو تأجيل قضية أو فك رهنية أو إعفاء ولد من الجهادية، ولكن أبي بلباقته المشهودة يتكئ بكوعه الأيسر على المسند ويشوح بذراعه المبسوطة فوق ركبته اليمنى قائلًا في ابتسامة دمثة ونبرة صوت حكيمة إنه في النهاية سيأخذ الفلوس ليشتري بها هذه الأشياء نفسها من الدقيق إلى الإدام.

وهكذا ففي الأيام التي تطول فيها الأزمة بين الطحين والطحين، إذ يعجز أبي عن تدبير ثمن الطحنة: ست كيلات من القمح ونصفها من الذرة والشعير مع كيلتين من الأرز الأبيض وهي الكمية التي تكفينا لمدة خمسة عشر يومًا، نفاجأ بأن أمي قد تلقت في السر ثلاث كوبات من الأرز - حوالي ثلاثة كيلو جرامات - من دار الحاج عقل، أو بطتين كبيرتين من دار بقوش، أو طاجن لبن من دار البكاروة؛ فكل هؤلاء عملاء أبي، أما ورقة الدخان اللف أم نص فرنك التي يحتاجها أبي كل ثلاثة أيام، وباكو الشاي وقرطاس السكر فهذا وذاك مقدور عليه ينجح أبي في تدبيره من محمود خليفة صاحب دكاكين البقالة الذي يعتبر أهم واحد في عملاء أبي؛ إذ إنه يمد أهالي البلد بأصناف البقالة وبالسلفيات النقدية على ذمة المحاصيل بموجب كمبيالات عليها

نسبة من الفوائد؛ ولذا فإنه في كل أسبوع يسلم أبي كمبيالات جديدة فات ميعاد استحقاقها وعلى أبي أن يرفع بموجبها قضايا في محكمة قلين ليستصدر أمر أداء بالدفع أو بالحجز على ممتلكات المدين لبيعها بعد حين في مزاد علني، في العادة لا تصل القضية إلى هذه المرحلة؛ لأن الفلاح الذي ورث كره الحكومة ومقت جميع مندوبيها وممثليها ما إن يتسلم الإعلان من محضر المحكمة حتى يبادر بالمجيء إلى أبي للبحث عن حل عاجل بالتراضي.

كل عملاء أبي وعلى رأسهم محمود خليفة نفسه وهو من أكابر الأعيان في بلدتنا، وكذلك معلمنا الأول محمد أفندي ريشة، وناظر المدرسة الشيخ عبد الباري عباده، كلهم باركوا لأبي على نجاحي في الحصول على الابتدائية، بعضهم بارك بنبرة لا تخلو من الحسد، إلا أنهم جميعًا ـ ربما بغير إرادة منهم ـ ضخموا عملقة الكابوس بكلامهم الكثير عن المصاريف الباهظة للمراحل التالية من التعليم، حتى صرت أنام على ظهري ـ في الليل أو في النهار ـ محاولًا الوصول إلى رأس هذا الكابوس العملاق لكي أضع نفسي تحت عينيه لعله يرحمني ويرفع قدميه عن صدري: لقد أكدوا جميعًا أن حظي تعس ما في ذلك شك، فكوني حصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق وبتقدير متقدم لن يشفع لي في استكمال تعليمي الذي أحلم به؛ إذ إنني سأنتقل إلى المدينة، يعني يلزمني مسكن بإيجار شهري، وملبس نظيف لا يقل عن بدلة وطربوش وقميص أفرنجي وحذاء، يلزمني زوادة قوامها خبز وغموس لثلاث وجبات في اليوم، ومصروف يد لا يقل عن ستين

قرشًا كل شهر بواقع قرشين كل يوم أشتري بها غموسًا وكراسات للواجب، ناهيك عن الرسوم المدرسية الكبيرة التي لا بد للطالب من أن يسددها قبل بدء العام الدراسي بوقت مناسب، وهل المسكن في المدينة لا يلزمه فرش وغطاء وصندوق وحقيبة؟ وهل السفر إلى المدينة لا يلزمه أجرة؟ من أين يأتيك كل ذلك يا مسكين؟ هل تظن أنك على الحجر وحدك؟ حتى لو كنت الابن الوحيد لأبيك هذا فإنه لو قطع نفسه شغلًا فلن يفي بمصاريفك، فما بالك وأنت واحد من عشرة أبناء غير الأم والأب؟ أمرك لله إذن يا ولدي، خير لك ـ اسمع كلام أبيك ـ أن تبحث لنفسك عن شغلة بالابتدائية فتضرب عصفورين بحجر واحد: تساعد أباك على المعايش، ويصبح في جيبك فلوس تدبر بها مستقبلك، وإن كنت متمسكًا بالتعليم ذاكر من منازلهم وخذ ما تشاء من الشهادات...

يزداد الكابوس ثقلًا وقتامة من ليلة لأخرى مع تواتر المقترحات التي يتبادلها عملاء أبي فوق الدكك في نور مصباح الجاز نمرة عشرة المعلق في السقف بجنزير ذي رمانة متحركة تساعده على الهبوط والصعود حسب الحاجة، ويقال في أدبيات عائلتنا إن هذا الجنزير وغيره من آثار لا تزال باقية في دارنا من خرج السراي الخديوية؛ إذ إن جدي لأبي ـ هذا الذي يطل من برواز صورته على الحائط بوجه سمح بشوش مدور كالقمر تحت الطربوش القصير تحيط به هالة فضية من لحية بيضاء جميلة ـ كان يعمل في تلك السراي خازنًا لطعام الأسرة الخديوية قبل حوالي أربعين سنة مضت. في ذلك الضوء الشاحب المخنوق،

حيث تنعكس ظلال الجنزير وقاعدة المصباح فوق وجوههم، كانوا يبدون لي ككائنات غريبة مرسومة بألوان الباستل منذ آلاف السنين، وكان الهواء المتدافع من شبابيك المندرة المتقابلة يلعب بالمصباح في رواح ومجيء فيلتبس على الأمر في قعدتي على الدكة البعيدة القريبة من باب الدهالين، فلا أعرف إن كانت هذه الكائنات تتحرك بالفعل أم أن ضوء المصباح هو الذي يحركهم فيكشف عن وجوههم تارة ويرمي بهم في الظل تارات! حتى أصواتهم الطيبة الراغبة حقًا في تقديم العون كان يخيل لي أنها آتية من الحقول البعيدة جلبتها هذه الرياح التي تلعب بالمصباح..

أحدهم يقترح أن أشتغل بائعًا في المقر الرئيسي لمحلات محمود أفندي خليفة.. الحاج بقوش يلوح بعلاقاته الطيبة بتفتيش وسية محمد علي توفيق ويتعشم أن تكون أمي قد دعت لي في ليلة قدر حتى تنجح وساطته في تعييني كاتبًا للأنفار في الوسية، حاجة نظاكة وعمل نظيف محترم سأركب فيه حمارًا بسرج وأحمل شمسية وأتأبط دفترًا مطويًا وأرتدي قبعة من الخوص أو طربوشًا وبدلة لو أردت..

أبي يصارحهم - طلبًا للمشورة - بأن أحد قضاة محكمة قلين الجزئية ممن يأنسون إليه سأله إن كان يعرف ولدًا مدردحًا يجيد القراءة والكتابة ليشتغل عنده شبه سكرتير خاص له - لاحظت أن أبي قد ابتكر هذا التعبير: شبه سكرتير، فور اللحظة ليستبدل به كلمة: خادم خصوصي - فماذا فيها يعني لو أن أبي أهداني إلى هذا القاضي؟ ألا يكون بذلك قد خدم القاضي وخدمني وكسب بجميله هذا شخصية مهمة سوف تنفع لا شك

في خدمة مصالح أهل البلد؟...

تغيب عن أذني تعقيباتهم بل تختفي الوجوه من عيني إذ يخيل لي لحظتئذ أنني اصطدمت بنظرات الكابوس العملاق هابطة فوقي من عل، وأنني شاهدت - للمحة خاطفة - صورته فإذا هو بقرنين فوق الأذنين معقوفين لأعلى، وعلى حنكه ابتسامة كفتحة كهف سحري مخيف.

رحت أرتعد بشدة أزداد انكماشًا وتكومًا فوق ركبتي المرفوعتين، إذ بسطت فوقهما ذراعي وأرحت رأسي فوق يدي وقد اعتراني شعور خارق بأنني قادر على الطيران بل هأنذا أطير بالفعل محلقًا في الفضاء تحف بي عشرات من سراديب ضوئية على شكل قراطيس من الضوء تضيق كلما تباعدت، وأن سردابًا منها قد يوصلني إلى عرش السماء حيث الحضرة الإلهية وحيث يتعين عليّ أن أجثوا راكعًا طالبًا من الله أن يوقف هؤلاء القوم عن الخوض في تحديد مصيري على هذا النحو الذي لا يرون سواه.

لكنه سبحانه - جل في علاه - كفاني مشقة الصعود المستحيل وكان لطيفًا وأقرب من حبل الوريد؛ إذ بينما المقترحات المصيرية تترادف ليلة بعد ليلة ويلحقها بعض تعديلات تذهب بي إلى المحلة الكبرى للالتحاق بالعمل في مصانع الغزل والنسيج، ويا حبذا لو كفر الدوار التي لم تزدحم بعد بالعمال، إذا بمعلمي محمد أفندي ريشة يقتحم المندرة عقب صلاة العشاء. كان حميمًا بالنسبة لجميع الآباء، ومؤثرًا بقوة، حيث الناس في بلدتنا

يرهبون العلم والعلماء ويبجلون المعلمين كأنهم بالفعل ورثة الأنبياء.

بسط محمد أفندي فكرته في حسم وإيجاز، وفي حزم يشبه الأمر حصل على الموافقة في الحال: لقد تبنى دفعتنا هذه التي حصلت على أول شهادة ابتدائية من مدرسة البلد بالمجان، وقد قتل نفسه ليل نهار في المذاكرة لهم بإخلاص وتفان حتى نجحوا جميعًا بتفوق على المنطقة، وحرام في رأيه أن تبتر مسيرتهم التعليمية بسبب الفقر، سيما وأن من بينهم ولدان مثلي خلقوا للتعليم، وبناء عليه فإنه نظرًا لعلمه بفقر آبائنا جميعًا قد اختار لنا تعليمًا مختصرًا يؤهلنا لوظيفة محترمة ومقدسة: المعلم، لسوف يأخذ أوراقنا ويسافر على نفقته إلى مدينة دمنهور ليقدمها لمعهد المعلمين العام هناك، وهو معهد بلا مصاريف باهظة اللهم إلا قروشًا ضئيلة كرسوم التحاق يمكن تدبيرها، مدة التعليم فيه أربع سنوات فقط، وأما نفقاتي الخاصة فإنني طوال الإجازة الصيفية يمكن أن أشتغل كاتب أنفار في الإصلاح الزراعي أو حتى نفرًا وأن أدخر أجرتي للإنفاق منها على العام الدراسي فما رأيكم في هذا يا رجال؟..

أومأوا جميعًا موافقين في امتثال ودعوا له بطول العمر وعمار البيت..

إلا أنه قبيل انصرافه فجّر قنبلة مسيلة للدموع بقي دخانها في عتبة دارنا لأيام عديدة حيث يرتفع وينخفض لدى كل حديث نتبادله: ذلك أن أمر تعليمي وقد وصل إلى أدنى مستوياته اتضح

أنه ليس يخلو من تكاليف مطلوبة فورًا؛ فهناك ورق يجب أن يتم تجهيزه من الآن: سحب مستخرج من الشهادة الابتدائية من المنطقة التعليمية.. التقاط ست صور فوتوغرافية لوجهي، ولا بد لإنجاز هذه وتلك من السفر إلى كفر الشيخ العاصمة.. سحب استمارة التحاق من المعهد في دمنهور يدفع لها رسوم هي بالقياس العام قروش ضئيلة لكنها بالنسبة لي تعتبر باهظة وخاصة إذا أضيفت إليها أجرة السفر إلى دمنهور وكفر الشيخ.

بحسبة دقيقة استهلكت برية قلم كوبيا وفرخ ورق، حيث أعيد التفقيط عدة مرات وفي كل مرة نختصر عدة مليمات من مشاوير سنقوم بمشيها بدلًا من الركوب، اتضح أننا نحتاج إلى مئتين وخمسين قرشًا لتغطية نفقات عملية التقديم لمعهد المعلمين العام..

عندئذ رمى أبي بالقلم على رخامة الترابيزة البيضاوية الموروثة عن جدي، وتذرع بالصبر والحكمة ليعتقل انفعاله لكن الألم كان يعتصره وهو يقول:

- «يا ولدي هذا تعليم بالإكراه! سبحان الله والحمد لله اللهم لا اعتراض! أنت من بيت علم على امتداد عدة أجيال والدليل على ذلك ثلاث مكتبات كبيرة في دار العائلة لا يوجد نظيرها في أي بلد! عمك شيخ أزهر سابق وعمك الآخر منشد صييِّت خاص بسراي أفندينا! جدك أحد نظار الخاصة الخديوية تعلم في استانبول وباريس! لكن الحياة انقلبت رأسًا على عقب! صرنا في

الحضيض بدون مناسبة بدون ذنب جنيناه، لكنها لعبة الأيام وغدر الزمان وأضاليل السياسة! أنت تعلم أنني أخذتك من يدك وألحقتك بالكتاب لتحفظ القرآن ثم ألحقتك بالمدرسة في حين كان الخفراء النظاميون يهاجمون الدور والحقول للقبض على عيال الفلاح لإلحاقهم عنوة بالمدرسة تنفيذًا لخطة طه حسين في جبرية المرحلة الإلزامية ليصبح كل أفراد الشعب على دراية بالقراءة والكتابة! يشاء السميع العليم أن من أجبروا على دخول المدرسة دون إرادتهم هم الذين يملكون القدرة على الإنفاق في استكمال التعليم أما أنت الراغب فيه حقًّا والمتفوق عليهم لا يريد لك الله أن تتعلم! لا بد من أن له في ذلك حكمة فامتثل يا ولدي لمشيئته وأمرك إلى الله! وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم! وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم! الله معك على كل حال!».

ثم هبَّ واقفًا فوق الكنبة بالصديري فوق الفانلة أم كُم طويل واللباس الدبلان أبو دكة؛ فبدا رفيع الساقين ناحل الجسد تعيسًا مقهور الملامح. وفي اللحظة التي كنا - أمي وأنا - نتساءل فيها عن سر وقوفه المفاجئ انطلق صوت أذان العصر من مسجدين يحصران دارنا. عندئذ هتفت أمي من قلب موجوع محسور:

- «الله أكبر على من طغى وتجبر! الرحمة من عندك يا كريم يا رسمال الفقراء!».

ثم لكزتني في جنبي فيما هي تنهض واقفة بصعوبة، أما أبي فراح يقيم الصلاة بصوت مرتفع فيه جدية وحماسة، ثم أتانا صوته عبر باب الدهليز يقرأ سورة القارعة كأنه ينتحب، كأنه متهم في جناية ويدلي بأقواله أمام قضاة عدول. قالت أمي وهي جالسة على بسطة السلم الخشبي ذي العرائس المخروطية:

- «صلاة أبيك دائمًا مرعبة! دائمًا حراقة! دائمًا تبكيني وتقطع قلبي!».

وكنت على يقين بأنها تقول ذلك لتبرر انخراطها في البكاء المكتوم رغم عنف دموعها التي كانت تقفز متطايرة كقطرات الزيت المغلي عند الطشة فتصيب وجهي بلسع حارق.

في تلك اللحظة صرت على استعداد تام للتنازل عن كل شيء، بل كرهت التعليم ولعنت أباه وأبا الشهادة كلها. يبدو أنني دون أن أدري قلت كلامًا كهذا أو قطع منه لأن الارتياع نفخ ملامح وجه أمي فأوقف دمعها في الحال وتعطل انهماره على جسر ابتسامة شاحبة لكنها أضاءت وجهها وهي تمسك بيدي وتغمزها طالبة الهمس في أذني:

- «روح لسعيد النشرتاوي قل له تعال كلم أمي!».

اندهشت:

- «ماذا تريدين من سعيد النشرتاوي؟ لم يبق إلا الغنَّام؟!».

- «افعل ما قلته لك!».

قالتها بجدية وحسم، ثم استدركت:

- «لا تجعل أباك يلحظ شيئًا! سأفتح لكما باب الحارة فلا تدخل من باب المندرة!».

دار سعيد النشرتاوي لا يفصلها عن دارنا سوى دار الخطيب ودار ابن عم لي، ولكنني تلكأت في الذهاب حتى أفهم سر علاقته بما نحن فيه الآن. إنه ليس بالشخص الذي يمكن لأمي أن تقترض منه مائتين وخمسين قرشًا على فرض أنها تستطيع أصلًا سداد دين كهذا حتى ولو على المدى الطويل.

ولحظة أن كاد الشك يفرك قلبي أشرقت في دماغي صورة ستي نفيسة أم أمي المقيمة لدى أهلها في بلدة فوة منذ أن رحل زوجها - جدي - قبل ما يقرب من عشرين عامًا. ستي نفيسة مدبرة، شاطرة، كلما زارتنا في البلد تحرص على مقابلة سعيد النشرتاوي، إنه غنام، ومراحه لصق دارنا من الخلف يمتلئ بقطيع كبير من الأغنام يدوشنا طوال الليل مأماة ونطحا وهياجًا مثيرًا تخجل من صوته النساء ويدارين وجوههن حين يسمعنه، ينضح المراح على دارنا رائحة الروث المشبع برائحة الضأن. الآن فحسب تذكرت أن ستي نفيسة تملك في حوزة سعيد النشرتاوي عشر نعجات سمينات كانت في الأصل أربعًا ثم تكاثرت بالتوالد، والنظام بين ستي والغنام أن يحتفظا بالإناث ويبيعا الذكور بعد أن تصبح خرفانًا وكباشًا على أن يقسم الربح مناصفة بينهما. ساءلت نفسي: هل تجرؤ أمي على بيع واحدة من الغنمات دون علم ستي؟..

اتضح أن أمي كانت على علم بأن إحدى النعجات ولدت منذ حوالي شهرين وذلك أمر لا يمكن إنكاره لأن النعجة الوالدة تمشي وخلفها حملانها، مع العلم بأن نعجات ستي نفيسة مميزة بعلامة يتم حفرها بالسيخ المحمى في بطن الساق، ثم إن أمي تراقب القطيع عند الخروج من المراح وعند الدخول، وتستطيع في الليل أن تلقي نظرة على المراح من سطح دارنا ولو رفعت المصباح بيدها لتمكنت من تمييز غنمات أمها.

أقعى سعيد أمام أمي في الدهاليز وقال بصوت خفيض يشي بأنه متآمر أصيل، وبنبرة تنم عن عقيدة راسخة:

- «النتايات لا يمكن التفكير في بيعها! هذا شؤم والعياذ بالله! لكن من حسن الحظ عندنا حُولي واحد (يعني حمل) عمره ثلاثة أشهر ولكن بيعه ليس يستحق مشقة السفر إلى سوق بلدة العجوزين!».

حملت أمي في وجهه بضراعة:

- «ضمينك النبي يا سعيد! لا بد من بيع الحُولي! الولد يا قلب أمه مستقبله مرهون على جنيهين ونصف! أيرضيك أن يضيع مستقبله في شربة ماء؟ نحنِ ما صدقنا أن ولدًا من عيالي مشي في التعليم وربنا وفقه وصار من الناجحين!».

وضح أن سعيد النشرتاوي تأثر جدًّا فعض على نواجذه وراح يفكر في عمق، في الحق لقد عذرته في تردده لأن مشوار العجوزين سمج تضج فيه الحمير من كثرة القلاقل وضيق

المدقات لمسافة تزيد على عشرة كيلو مترات..

أخيرًا قال سعيد كالمغلوب على أمره:

- «نفرض أننا بعنا الحُولي! كم ثمنه؟ اربعة جنيهات مثلًا بالكثير لو جبره السوق؟ سآخذ منها جنيهين فيبقى..».

- «يا سيدي ما تقوطعشي! إن جاب أربعة جنيهات خير وبركة! سأتصرف أنا في نصف الجنيه الباقي حتى لو استلفته منك لحين عودة أمي! اتكل على الله أنت واطلع السوق بالحُولي وربنا سيكرمك من أجل خاطر هذا الولد الغلبان!».

أومأ برأسه في امتثال:

- «ماشي! سوق العجوزين يوم الثلاثاء يعني بعد بكره! آخذ المحروس معي على الركوبة ونتكل على الله من أذان الفجر!».

- «ما لزمة الولد؟!».

- «واحد من طرفك يحضر البيع والشراء!».

- «يا سيدي العملية في بيتها!».

- «رجله على رجلي! الأصول أصول!».

- «تروح معه يا ولد؟».

- «أروح طبعًا!».

ليلتان لم أنم فيهما، لقد عاينت الحمل المرشح للبيع واحتضنته كتميمة مقدسة، احترمته جدًّا واعتبرته منقذي من الضياع وكنت آخذه معي إلى الفراش.

كنت أغمض عيني منطرحًا على ظهري وسط إخوتي في الخزانة القبلية، ينفصل دماغي عن جسدي ويصعد محلقًا في السماء، يتمعن في سراديب الضوء الشبيهة بالقراطيس أتخيلها موصولة بعرش السماء الذي أقرأ وأسمع عنه كثيرًا، أحاول أن أعرف أيها الأقصر والأقرب فأراها قد حاصرتني فأرتعش بلذة ورهبة متخيلًا سيدنا محمد ﷺ في ليلة الإسراء فأردد بصوت يطن في صدري كقرع الطبول: يا رب! يا رب! يا رب! ثم يثقل رأسي شيئًا فشيئًا وأشعر بقلبي يرتفع ثم يهبط في الحال فأراني فوق الأرض أفنديًا معتبرًا محترمًا يمشي بوقار متأبطًا حقيبة ويمر على تلاميذ المدرسة فيقفون رافعين أيديهم إلى جوار آذانهم وأنا أومئ لهم برأسي وأرد على تحيتهم بابتسامة وقورة حانية.

من مشهد كهذا انتزعتني قرصة موجعة، انتفضت جالسًا فإذا بأمي توقظني لكي أتسلل إلى الدهاليز كي أغسل وجهي وأغير ثوبي وألحق بسعيد.

ركب سعيد فوق الحمار آخذًا الحَمَل في حضنه وركبت أنا وراءه ممسكًا طرفي البردعة بيدي. صرنا نركض في فضاء داكن، وكانت الأرض الزراعية حوالينا أشبه براقصة غانية تخلع ثيابها قطعة فقطعة إلى أن تعرت تمامًا تحت وهج الشمس المشرقة

واكتسبت المرئيات كلها لونًا نحاسيًا ساخنًا، والحمار يبرطع كالرهوان الطفشان الطهقان كأنه يريد أن يتخلص منا ومن حياته حتى خيل لي أنه سيرمي بنفسه في ترعة الهويس المارة بشباس الشهداء.

في الثامنة وبضع دقائق كنا في قلب سوق العجوزين ومنه إلى سوق الماشية. تخيرنا مساحة فارغة وتقرفصنا واضعين الحمل أمامنا وقد أمسك سعيد بحزمة برسيم وراح يحشرها في حنك الحمل ليأكل. ولكن الحمل كان مسدود النفس في غاية من السأم والإرهاق وانحراف المزاج ربما بسبب انتزاعه من أمه. انطرح على جنبه رافعًا رأسه ينظر إلى هذا المهرجان المرتج من حواليه: نعير ونهيق وصهيل ومأمأة ونباح، نداءات وعراك ومشاحنات وأيمان مغلظة تتطاير في الهواء بغير حساب، حلفان بالطلاق وإلحاح في طلب الصلاة على النبي تتخلل الحديث بين كلمة والتي تليها..

توقف أمامنا كثيرون، بعضهم تقرفص وجسّ الحمل بيديه في خبرة ثم نهض ومشى، بعضهم سأل: بكم؟ فرد سعيد على الفور: بالصلاة على النبي، فيقول بغير حماسة: اتنين جنيه، فيهز سعيد رأسه في أسف: يفتح الله؛ فيمضي من فاصل دون تعليق. تكرر هذا المشهد كثيرًا ثم انقطع الوقوف أمامنا تمامًا..

الوقت يجري بسرعة مذهلة. وأنا الذي طالما ضقت ببطء إيقاع الوقت صرت الآن أتشبث بالزمن أتمنى أن لو استطعت أن أقبض عليه بأسناني حتى لا يمر أو على الأقل يتمهل قليلًا حتى

نبيع هذا الحَمَل، لقد صار مربوطًا في قلبي بحبل، فإذ يغمض عينيه ويريح رأسه على ساقيه تنسحب الحرارة من كل جسدي وأروح أهذي دون أن أفتح فمي: إنه يجب أن يقف على قدميه ويأكل، ان مستقبلي صار معلقًا به ولا بد من بعث الحرارة والحيوية فيه إلى أن يتم بيعه، إلا أنه يكيد لي كيدًا فلا يتحرك وإن كانت بطنه تعلو وتهبط. أنحنى غليه، أتحسسه، أستحلفه بالله أن يقف ويمأمئ، أكاد أبكي بحرقة لولا خشيتي من نظرات سعيد التي أشعر أنها توشك أن تتهمني بجلب النحس في هذا المشوار التعيس. راحت الرغبة في البكاء تتفجر في صدري كالبراكين المدمدمة.

تربعت على الأرض منكسًا رأسي مغمض العينين، تحيط بي سحب دكناء قاتمة في سماء تعج بالرعود، تتصادم السحب كالجبال الزاحفة تتناطح كالخراف تنثر شواظًا من لهب وبوارق، شعرت أن جميع الطرق إلى عرش السماء أغلقت تمامًا. وحين لكزني سعيد لكي أفيق وأنهض أحسست بكثير من العدوانية في أصابعه، وإذ فتحت عيني كانت أرض السوق شبه خالية، وثمة صوت يؤذن لصلاة العصر، وسعيد ينحني على الأرض ليرفع الحمل جثة هامدة، يطرحها على ظهر الحمار ثم يقفز راكبًا يرمقني هاتفًا بحنق: اركب..

ركبت وأنا بدوري جثة هامدة. ما إن صرنا على الطريق الزراعي حتى مال سعيد برأسه إلى الوراء هاتفًا بأسف ومرارة:

- «نرمي جثة الحُولي أم نرجع بها لكي تشوفها أمك

بعينيها؟! الأحسن أن نرجع بها!».

بربشت بعيني من خلل الدموع الهاطلة. لدهشتي فوجئت، نعم فوجئت بأن الجو صحو والشمس حامية، وإذن فليس هناك سحب دكناء قاتمة تبرطع في الفضاء كجبال سائبة تتصادم لتلقي على الأرض حممًا، فبدا لي ذلك اكتشافًا عظيمًا يهدهد القلب الكسير.

المعادي - شارع النصر 31
5 - 11 - 2001

أشياءُ تخُصُّنا

«يوم ذهبت إلى الصرّاف لأقبض فروق الضرائب لذَّ لي أن أتأخر طويلاً حتى لا أقف في الطابور، هكذا قلت لمن دعاني لمرافقته إلى الخزنة من زملاء القسم، ولكنني فطنت إلى أن ملابسات السرية التي أقمتها حول خبر الفلوس جعلتني أرغب في ألاّ يراني أحد لحظة قبضها...»



